كمــار

كمـــار

2

رواية

هشـــام عيـد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: كمـــــــار
اسم الكاتب: هشـــام عيــد
تدقيق لغوي: محمد مصطفى علي
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الثانية – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 13162
الترقيم الدولي: 5 – 5 – 85721 – 977 – 978

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

شكـر خـاص

للأستاذ/ طلعت قديح

الإهـــداء

إلــى شهيرة، دائماً.

يا أبا الفضل لا تنم، وقـع الذئب في الغنم

إن حـمادَ عجــرد، شيخُ سوء قـد اغتنـم

بين فخذيه حربةٌ، فـي غـلافٍ مـن الأدَم

وهو إن نال فرصة، مجـمج الـميم بالقـلم

"بشار بن برد"

1

"اللهفةُ تطغى على الحذر. الجهرُ بما يجيش بالنفس لم يعد إثمًا، بل الإثم هو وأد البركان المضطرم داخل هذا الحيز الضيق. توشك الحمم أن تخرقَ الحُجُبَ وتنفذ من كل إسار. فلنبُح، فإما أن يدركوا، وإما أن نحطّم أصنامهم. أنا لن أكون سوى أنا، فليذعنوا أو يذهبوا.

في البوح، إذا تجاوزنا ردود أفعالهم، راحةٌ توحد النفس والجسد. رفض ارتداء الأقنعة، تطابق العَلَنِ والخفاء، فليقبلوا أو يرفضوا؛ لن نخسر متعة حقيقتنا من أجلهم. ربما يعود المعارضون مؤيدين في النهاية. يالروعة انكسارهم بعد أن كانوا يدَّعون النفور!

لماذا فُرِضَ عليَّ أن أتقبلهم وهم في أقنعة، وينكرونني أنا السافر بالحقيقة؟ أُكَاشِفُهم مكاشفة جسور. المتقنّع بوجه يناسبهم ثم يكشف عن حقيقته خلف الأبواب المغلقة لم يكن أنا. المبتذل مرتديًا ملابس الادعاء بوجهٍ تعلوه الأصباغ لم يكن يومًا أنا. سرت في التاريخ بعصاي فشققت جمودَ ادعاءاتهم. كُلفة الادعاء أقل وطأة من الجهر بالحقيقة. هذا الطين خلقني هيئة وداخلي تتلظّى هيئة أخرى، أسمعها وألمسها ولا يراها الناس.

لمَ أئد هيئتي وألفظ رغبتي إرضاءً لمن لا يعنيه أمري؟

لا أحد يعنيني سواي...

لا تجفَل، لست أحُطُّ من شأن غايات بعضهم النبيلة، الشرط أن تكون أنت أنت.

أكثرهم يكشفون عن وجه شديد الاختلاف عندما يختلون بالبضّ اللطيف. والبطيخة التي لم تنشق، اهترأت من دعك الأكف. تتهاوى أبراجُ العفة فتنتشر الفئران في قعرها السحيق. هم حين تغيب العيون سواهم حين تلحظهم، يتلطفون ويتوددون كأنما لم يكن لعيونهم هذا النبذ وهذا الغضب أمام الناس. كلهم إلا ذلك الوجه الصلب الواحد الذي يشبهك. لم يضعف حتى حين رأى الرصاص، أخبروني أنه تلقّاه بصدره واقفًا.

البوحُ الليلة ضرورة تاريخية؛ من يدري كيف سيكون الصباح ومن سيكون ومن لن يكون؟ يحدثني قلبي أن لقاءنا هذه الليلة لم يكن محض صدفة. سأقرأ عليك شعر أبي نواس. هذه المكتبة، حياة بجوار الحياة، لكنها حقيقية. سنقرأ معًا أوسكار وايلد، سأحدثك الليلة عن الخليفة الأمين وكوثر..

"كوثرُ ديني ودنياي وسَقَمي وطبيبي.

أعجز الناس الذي يلحى محبًا في حبيبِ."[1].

---

1 شعر منسوب للمأمون

وبجوار السلطان الغوري، جلس الفتى شمعان. "غض الإهاب كملمس الوردة، فلقة قمر، هلال فضة مولود، شفتاه حبتا ياقوت، له عينا هرٍّ، فمه مسكٌ وطيب، خده ألين من حرير، يده في طراوة العجين."[1]. بعض السلاطين كانت تجد في قرب مثل هذا الفتى الأمرد متعة لا يعرف السر فيها إلا من دهمه الولع.

سأحدثك عن أفلاطون ونسقه الفلسفي الشامخ، أتعرف عنه ما أعرف؟ المدينة الفاضلة؟! أعلمت ما فيها ولمَ هي فاضلة؟ سأخبرك عن الخلود في نار المحبة وذوق العشق حتى يهلكك. دعك من العاديين أشباه الأحياء، والمألوفين صناع الانتصارات الروتينية، دعك من المؤقتين المسجونين في قوالبهم الصمّاء، والذين لم يحاولوا يومًا أن يعرفوا الشغف الحقيقي ومتعة الانتصار على هيئاتهم.

الناس عبيد ما أَلِفوا. في أحلامهم وواقع أيامهم، لا يتبعون إلا ما وجدوه مجهّزًا من قبل، آلاف الوجوه، حسبما تقضي المواقف. علّمتهم درسيَ البليغ. علّمتهم بالعشق والخنق والرقص والرصاص. وعلى موائد إرضائهم سكبت ذاتي وكرامتي ورضيت بكل أشكال المهانة.

*****

---

1 " الزيني بركات. جمال الغيطاني"

تحاكمني عيناكَ، تسائلني بلا لفظ. صمتُك يأسرني. والبوحُ يغلب عليَّ هذه الليلة. سأحدثُك عن واضح العهر ومغفول البذاءة، عن عذاب الحيارى وأنَّات المقهورين، عن مجبوب أذاب قلبه التوق، ضيّعوا آلته ولم يقطعوا الشوق، عن صبيّة تناقلتها أيور قساة القلوب حتى قتلها الجنود من دون أن تدري يومًا ما الحياة. عن مُعذب مُتَوَسَطٍ كل ما يرجوه أن يضعوا بعض الزيت على طرف الخازوق. "وخلف كل قيصر يموت، قيصر جديد."[1] . سأحدثك الليلة عن القبح الحقيقي. سأعدّ لك الأحداث والبُنَ اليماني والجمبري، فلا تزدري عيناك عيني إنني قد جئت من بحرٍ عميق، من وهاد قلّما وطأتها قدم بشر.

---

1 أمل دنقل "كلمات سبارتاكوس الأخيرة"

2

تتماهى البدايات، تتعثر في استدعائها الذاكرة، لكن الرغبات الأولى لا شيء يمحوها، لا شيء يُخفضها، أبدًا هي في اضطراد، أبدًا تشبُ لكي تحقق ذاتها، شيئًا فشيئًا تتضح. يمنحك النضج التفسير لما قرَّ في الذاكرة صورًا وأحاديث. تكتمل الصور الناقصة في الذهن بمرور الأعوام. أراها الآن بعين اللحظة، تُلقي الأيام الضوء فتكشف سابق الألغاز وتمنح التفسير. ربما تخادعني الذكرى بصور مهتزة.. ربما لم أكن موجودًا من الأساس وكل ذلك حلم شخص آخر.

*****

قريتي كانت مجنونة وساحرة، خلّابة بخضرتها وشمسها في الصباح، ثم بالجثث التي تطفو على تُرعتها في السَحَر. خانعة بالنهار وبالليل طاغية. المارقون عن براءتهم يرتادون أقبية الطغيان. يدور الغفرُ ليلًا لحراسة النجع وفرض الإتاوات، بينما ارتخت أرجل نسائهم المتسخة فوق أكتاف أجلاف لا يقلون تعرقًا وبؤسًا؛ يدفِّعون رماحهم بين أفخاذهن. وفي أكنان مختبئة تدور الجوزة وبصاق الرجال كما تدور السِّير حول الشيوخ والمسوخ. ثم

يسطع النهار على الحقول فيدَّعي الزرعُ البراءة. وفي النهار، كان الذي يحرص عليه الليل واللصوص والزناة والغفر، ادعاءات البراءة.

قريتي.. ربما كانت أسطورة لم أحيَها بالفعل، ربما كانت من نسج خيال. ربما لم يكن أبي، ربما اخترعت أمي، كل شيء بعيد. ربما لم أعش قبل هذه اللحظة. اللعنة على المنطق والأحداث والترتيب. سأجمع الأشياء بلا نظام، وعلى الليلِ أن يعيد ترتيبها. لو تخليتَ فقط عن بُعدك هذا وعن هذا الوقار، لو تحوّلتَ إلى حقيقة.. لو زرعتَ حقيقة وجودك داخلي!

*****

دعنا نلتمس الترتيب، الطفل الذي يعشق مراقبة الأشياء...

في جيبٍ إسمنتي عالٍ خلفَ سور منزلنا، كانت يمامةٌ تبني عشًا، بدأت منذ الشروق. تابعتها وهي تجمع القشَ وأعوادًا رقيقة، تنسجها يومًا بعد يوم حتى أصبحت مسكنًا؛ أَمِنَت فوضعت بيضَها فيه. تابَعتُ ناسجةَ عرشِها بتأنٍ، حياة عادية عاشتها آلاف الحمائم قبلها وستعيشها آلاف أخرى بعدها. الذي لم يكن عاديًا هو ذلك الثعبان الذكي الذي تربص بكل شيء في صمت. كان رابضًا قبل أن يهلَّ النور. انتظر وانتظر، أيامًا وليالي، كسرَ حاجزَ الأناة حين أفرخ البيض، حانت لحظة القنص المرتقبة، ثلاثة زغاليل ساكنون لا تدب فيهم الحياة والبهجة إلا عند عودة الأم. انتظر عليهم قليلًا

أكثر، تابعهم بمكر وخفاء، صمته خرافي وصبره بلا مثيل. تعود اليمامة من جولات نهارية لتفتح فمها في نهاية كل جولة موزعةً ما حشرت في حلقها طوال النهار، دود وحَبٌ وحُبٌ شفيق. تنتفض الزغاليل الساكنة، كلٌّ ينتظر دورَه. لاحظت أنها تطعم الأشد إصرارًا على الطعام؛ فطرة تسري بميزان حساس ليبقى الأقوى دائمًا، جهدٌ كبير ومشهد مؤسٍ. تسلل الثعبان في في مشهد ساحر، يكاد يهمس للجدار ألا تقل إني أمر. تآمر الجدار فلم يبح بالسر، اكتسى جلده بلون الإسمنت، عيناه ثاقبتان، زحفه لم يجرح السكون.

شعرت أنه يعلم أنني أشاهده وأشاركه المتعة والشغف. كان الزحف مثيرًا شبقيًا ناعمًا. اضطره الجيب الإسمنتي إلى الميل أُفقيًا؛ أمرَ جسدَه فأطاع، تلك لذةٌ يطيع من أجلها كلَ آمر. مال مرة أخرى في جوف الجيب الإسمنتي. اتجه نحوهم في هدوء. وصل، لم يهتز القشُ، ابتلعهم واحدًا بعد آخر. لا أظن أن فرخًا واحدًا أدرك مبتغى ذلك المخلوق الناعم جاحظ العينين. أقبلوا عليه يهشّون، فاتحي مناقيرهم أيضًا، ظنوه مُطعِمَهُم. التقمهم واحدًا بعد آخر، يبتلعه كاملًا ثم يلفظ الريش متناثرًا حول العش أو طائرًا في بطء حزين في الهواء. لم أشأ أن أمنع تسلسل المشهد المدهش بحركة أو نأمة، فتح فكّيه على مصراعيهما لتلقيهم؛ تَلَوَّى ليجد الغذاء مساره، شاهدتهم ينزلقون داخله، متعته تبدو مؤلمة، لذةٌ لا يعرفها إلا من كابدها

وذاب في وجد الشبع. لم أسمح لحضوري أن يُعَطِّلَه. قَذْفُه بالطوب أو التلويح بعصا كان رد الفعل الساذج لمن لا يعرف قيمة مثل هذه اللحظات النادرة، التقام الزاحف للطائر، سحرٌ وعجبٌ، لم ينته المشهد بالنسبة إلي. انتظرتُ عودة اليمامة، لم تَنُحْ كما يقول الشعراء، لكن صمتها وحَومَهَا حول الريش كان سردًا مؤسيًا للفقد. جمعت الثاكل بعض الريش وأعادته إلى العش، سئمتُ حماقتها حينئذٍ فلم أعدْ أتابع.

*****

3

نشأت بين أبوين صاخبين في بيت شديد الشموخ. بعد عبور مدخله الحديدي الفخيم، كان هناك فناءٌ فسيح يتوسطه سلمٌ رخامي. الجهة اليمنى كاملة تحتلها مكتبة من الأرض إلى السقف، ازدانت بأسفار على أرفف خشبية عتيقة. تعلو سطح البيت الشامخ بنية حجرية مدببة ميّزته عن باقي البيوت. فوق السقف صحائفُ من قرميد أحمر، قيل إن أحجار هذا البيت جُلبت خصيصًا من بلاد النوبة. كان منزلًا مكونًا من طابقين، خلفه أرض واسعة تمتد إلى بحيرة رمادية الماء. أفتقد دائمًا ذلك الظلام وصرير الجنادب ونقيق الضفادع وخمول الحراس مساءً، رائحة الشاي على جمر الحطب، البراريد التي سوّدها الهباب، خشخشة الحشائش والأغصان الجافة من وقع خطواتي، رائحة البن، طقوس قهوة أبي المقدسة "والسبرتاية" العتيقة ونرجيلته، وخيلًا وأبقارًا وأمهارًا برّاقةَ النظرات، وألم الوطأة الأولى.

وأذكر من صباي، على غير امتثال واضح، وجه أبي وصوته، كان وسيمًا طويلًا بضَ الكف مرموقَ المكانة، شعره الفضي الممشطٌ إلى الخلف كاشفًا عن جبهة أنيقة، رسمة شاربه التي تنم عن عناية فائقة، بياض بشرته

المشوب بحمرة، قامته البرجوازية الأصيلة، صوته الفخيم، شموخ حضوره حين يلتزم الرجال الصمت، خطواته الواسعة وعينيه اللتين تلمحان كل شيء.

تاهت الملامحُ لكن الصوت باقٍ، خاصة حين يغضب، كان يجلجل كالبرق، لا تتوقع جملة عاصفة أو جملتين، بل سربًا من القاذفات. لم يكن يهدأ إذا لم يُلق هذه الحمم. يأكل نفسه إن حال بينه وبين زمهريره حائل، يهز ركبتيه ويجمجم، يقرض شفتيه حتى ليوشك أن يبتلعهما. كان يحلو للمهرة الجديدة التي أنجبتني أن تصطدم به عند اشتعاله؛ تختبر صلابتها بمواجهة الثور الغاضب في لحظات جموحه، تصادمه بتحدٍ صارم لا يقل عنفوانًا، تصرخ في وجهه، صياحًا بصياح وغضبًا بغضب. وحشان يزمجران، يوشك أحدهما أن يلتهم الآخر، لا تعرف بماذا سيفاجئ أحدهما الآخر. قد يصفعها ثم يقضى الأيام متوسلًا عفوها، قد تطلق صرخة مدوية ثم تصفع باب حجرتها فلا تظهر لأيام. قد تتعرى أمامه فجأةً فيفور الثورُ غليانًا، تعميه الرغبة في سحق السدود، ينشر قرنيه ويندفع إلى الإغواء الأحمر. يختفيان فأتبعهما متلصصًا، تلتهم شفتيه، تمتص نيران البركان وتلتقم الجمر، يتلاشيان في كيان واحدٍ بلا تمهيد، كدورَان الفلك أو سير الزمن. يتداخل الوجيب فلا تدري أيهما الضحية. ويخور الثور من وقع السهام؛

حُمرة الصراع توهن عزمه فيرقد مثخنًا بجراح. يصبح كل شيء بعد ذلك لينًا سخيًا، وساحرًا.

كان أبي يهيمن على قطاع كبير من الطين والمجد الموروث، شديد الحرص طوال حياته على شيئين اثنين: المكتبة التي ورثها عن أبيه العالم الأزهري، وحاشية من الرجال.. العلم والسيادة، مئات الكتب والمخطوطات التي تحوي نسخًا قد لا تجد مثلها في مكان آخر في التاريخ والفلسفة والدين والأدب، و"عزوة" تمنحه المنعة والسيادة، يَهبّون مع ريحه حيث هبت، رجالٌ تخلّوا عن ذواتهم الحقيقية وصاروا ما يرجوه السيد، لا شيء يربطهم بالحياة سوى اتّباع هواه، مجرد ظلالٍ تحوم حوله، يبجلونه كإله، كل مقدّراتهم ومصالح عيشهم تخرج من كف أبي وعطائه. فهمت لاحقًا زهوهم بخرق ذلك "التابو" العظيم.

الصديق الوحيد الذي اتخذه أبي من كل أهل القرية كان العم "فخري"، هو الوحيد الذي كان يسمح له بالنقاش وتبادل الرأي وتَلَقِّي المعلومات. كان داهية هادئًا صموتًا، مشهورًا بأنه "يعالج الأمور"، هذا هو الوصف الذي يردده أبي دائمًا حين كانت تسأله أمي عن سرِّ صحبته. كانت تكرهه، لكن خطوب الليالي وتقلُّباتها تجعل الكراهية والحب وجهين دائمي التبادل. يذكرني رأسه الأصلع وعيناه الثاقبتان بالثعبان الذي التهم

الزغاليل. كل الذين عرفتهم كانوا يكرهون عم فخري في البداية، أبي وأمي والخط وابنه، وأنا أخيرًا، لكننا كنا نعرف قيمته بمرور الوقت؛ ندرك أنه رجل يتجاوز مفهومي الحب والكراهية، إنه ضرورة، ضرورة تفرضها السيادة فينتعلها السيدُ ولا يستغني عنها الفلاحون. كان خبيرًا أيضًا في عسِّ البهائم وتوليدها ومعرفة العُشر من الفارغة. ما زلت أسمع الأصوات في الضباب. هذا الحديث دار بين أبي وأمي مرارًا حتى حفظته:

- لا أريد أن يدخل هذا الرجل بيتي.
- لماذا؟
- أشعر أنه في كل التفاصيل؛ حتى مذاقات الطعام.
- لكنه يضمن أن يصلك الطعام طيبًا.
- وربما مسممًا.
- لا تتشاءمي.
- أكرهه.
- أنا أيضًا كرهته في البداية.
- وما الذي يجبرنا على قبوله؟
- العُمودية.
- لا أطيقه.

- يومًا ما ستشعرين أن لا غنى عنه.
- ما فائدته؟
- يعالج الأمور.

... لا يستطيع الموت أن يمحو الصوت أبدًا.

يتحدث أغلب الناس عن مآثر الراحلين، كثيرون قالوا إن الخير كله ضاع بعد أبي. وآخرون قالوا إنه كان جبارًا، غار بسطوته وبطشه، استحق ميتته المشينة، لو لم يكن له من ذنب سوى عم فخري لكفاه ليهلك في الجحيم. سمعت أحدهم يهمس لمن بجواره في سرادق العزاء إن أبي أجبر أخاه على التنازل عن ميراثه. كان أبي الشقيق الأكبر، أخبر أخاه "عابدَ" أنه الأقدر على حماية الإرث. لم يكن عمي "عابد" ليرفض وهو يرى بطش عصبة أبي. قالت زوجته بعد ذلك إن "عابد" لم يكن لينزع إلى خلاف مسلح مع شقيقه الأكبر من أجل الأرض، كل ما فعله في النهاية أن نظر نظرة دهشة كلها لوم وعدم تصديق، يحثّه على تذكر ما مضى وعِشرة الدم والذكريات القديمة. لكن أبي كان قد عقد العزم، رفضت عيناه وصمَّ قلبه ثم زجر أخاه بنبرة واضحة التهديد:

"أنا اللي هاعرف أحافظ على مالنا ومال عيالنا يا عابد".

"حتاخد أرضي وأرض عيالي عشان مصلحة عيالي يا فايق؟".

"حياة العيال أغلى، ولا انت شايف حاجه تانيه يا عابد؟".

دمدم الأخ بكلمات لم تعنِ القبول، لكنها لم تكن رفضًا. أرضك أم عيالك؟ رضخ في النهاية. كان مثاليًا في خصومته، وادعًا ومؤمنًا بالآخرة، لماذا يتسمون بالخنوع دائمًا، طالبو الآخرة هؤلاء؟

"خذ كل شيء وموعدنا الصراط"...

ومات كمدًا في الليلة التي وافق فيها على البيع، لم يمهله العمر لتوقيع العقد.

*****

4

أذكر لأبي موقفين شديدي البعد، عَلِقَا في قلبي فلم يمحُهما مرور الليالي...

كنت رديف أبي، وكانت الجياد تختال الهوينى في نهارٍ مشمسٍ، كأننا نسير في السحاب، مساحة ظهره عريضة رحبة، أخفيت رأسي من الشمس في حماه. توقف الرَّكب فجأة؛ استوقف أحد الفلاحين الرَّكب وبدأ يصيح، همهم الرجال بكلمات ساخرة. كان شيخًا هزيلًا ذا جلد لوحته الشمس، ضاع لون الثوب الذي يرتديه في قذارة الأوحال، كان متوترًا مدفوعًا بقهره، مرتعش الصوت، تخرج كلماته بلا ثبات، رذاذ فمه مقرف يسلبك التعاطف، ساذجًا كالحمامة. يبدو أنه قضى ليلته السابقة حانقًا يشحذ قواه لهذه اللحظة ويجهز الكلمات. أتعرف كيف يكون "زعيق" الخائفين؟ يكون مرتبكًا، لا يصلُ إلى يقين الصراخ ولا يعدو الهمس. شنّج الاندفاع عضلات وجهه الممصوص، تناثرت الكلمات من فيه بلا اتزان، شكاية وسباب، جسارة مُدّعَاة، أفرغ شحنته ثم وقف مهتزًا فارغًا، كأنه قَذَفَ. امتلأ المكان بالحيرة. أثناء حديثه، أخرج أحد الرجال سيخًا من ركاب

الفرس لينخسه، لكن أبي أشار بيده بغير أن ينظر خلفه فتوقف الرجل. كان لهذا الفلاح قيراط أرض يقطع فدادين أبي، عرض أبي شراءه، ربما بثمن لم يرضه، أصرَّ الرجلُ على الاحتفاظ به بحجة أنه الضامنُ الوحيد "لقوت العيال". كان هذا اللقاء صبيحة حرق محصول ذلك القيراط. لا شيء يحرق قلبَ الفلاحين كحرق المحصول ونفوق البهائم، بعضهم يهتم بالبهائم أكثر من اهتمامه بعياله. والمحصول أمل استكمال العام وتوفّر القوت، يتعهده منذ طلوع الشمس ويصحبه يوميًا حتى تغرب، يحلم باليوم الذي تنضج ثماره كفرحته بإنجاب وليد، سبق حرق المحصول مفاوضات قصيرة أدارها عم فخري لإقناع الرجل بالتنازل عن ذلك القيراط.

صاح الفلاح وأرغى وأزبد، ذكر اسمًا ارتجّ من ذكره أبي، "أنا مش عابد،". نكأ الجرح الذي يحمله صاحبه كصخرة فوق عاتقه، "مش حابيع، أرضي مش للبيع". احمر وجه أبي، توترت ملامحُه لكنه لم ينبس بكلمة واحدة. ارتفع سواد عيني الرجل فجأة وتصلب عوده وثبت كالوتد في الأرض. كان قد أصبح صلبًا بمرور الوقت، صارت كلماته أشد تماسكًا. وَجَمَ الجمع وارتبك الحصان. نظر أبي إلى عم فخري، نظر فخري خلفه، أعاد أبي وجهه للأمام ولم يعد وجه فخري؛ أدرك الفلاح أن كل شيء قد انتهى، انهزمت عيناه وزمّ شفتيه في يأس، ارتعش وتعرّق وخَفَت.

باخ كل شيء فجأة. أذكر جمود عيون الحصان، لم يكن احتمال الشمس ممكنًا، أغمض الفلاحُ عينيه بشدة، دوّت طلقة رصاص ثم سقط مكومًا، ارتجفتُ من صوت الطلقة. التفت أبي للخلف في غضب وصاح، "سوَرت ودن الواد يا بجم". ظل صدى الأزيز يدوي في الصمت والشمس لمدة، ثبّتُّ عينيّ على رأس الرجل الملقى على الأرض، تسرّب منه خيطُ دماء، تقززت من مشهد الدم المختلط بالطين والتراب، وازدان الوشم لامعًا بارزًا على بطن ساعده؛ لم تكن البطاقات الشخصية قد عُرفت بعد، كانوا يكتبون أسماءهم واسم عائلاتهم ببطن سواعدهم، لا تغنِي الأوشامُ شيئًا حين ينغلق المصير؛ فمن كان منهم مثبوت الميلاد قد لا يُعرف له أثر، يضيع في فراغ الكون، يُضرب به المثل فيمن لم يعرف الذباب الأخضر طريقًا لجثته.

مرَّ الحدث، كأنه ليس إلا سيجارة أُطفِئت من دون أن يُستدل على مدخنها. أردت أن أنزل من فوق الحصان لأركل الفلاح الحقير، "من أنت أيها القذر لتصيح في وجه أبي؟".

لم يبقَ إلا عم فخري، ليعالج الأمر.

وبالفعل، عالج الأمر بحكمة من لم يمر على مثله لأول مرة، جَهَّزَ للفلاح القتيل جنازة لائقة وأنعم على أهله بمبلغ مالي هزيل، لكنه أسدى للعدالة الخدمة الأجل، دلَّ الشرطة على القاتل، شقيق القتيل. أتعرف ما

الدليل الذي قدمه للمحقق المتعاون بشدة؟ شمَّ فوهة بندقية الشقيق فوجدها أقرب بنادق الصيد إطلاقًا لمقذوف؛ استند المحقق إلى تاريخ الجاني فأيقنَ جُرمه؛ كان الشقيق مغرمًا بصيد الطيور.

اكتسحني الشعورُ يومذاك أن أبي هو الإله، يعطي ويمنع ويقبض الحياة. آويت إلى حضنه وأنا أشعر أن العالم يدور ويتحرك بنظرة من عينيه، كنت فخورًا بقدرته، فخورًا بتميّزنا ومقامنا العالي. الاختلاف الذي وجدته مُجهزًا لحياتي؛ كان الناس يتنازلون عن مقتنياتهم طواعية لمجرد أنه أبدى بها إعجابًا أو أنظر إليها.

كان أبناء الأجراء يأتون لتسليتي، لم يكن أحدٌ منهم يجرؤ أن يهزمني في لعبة، لم يكن آباؤهم يُبدون تضررًا من أذيّة أبنائهم بلكماتي وآثار أظافري. عامر.. ذلك الطفل الأسمر الهادئ النحيل، كان أكثرهم تحملًا لضربي وعنفواني، أبوه أكثر الآباء إصرارًا أن ألاعبه، أو بالأحرى أمارس فيه هواياتي. كان يرسله كل يوم في أول النهار ويعود ليأخذه عند غياب الشمس، قد يَدَّعِي أحيانا أن الليل والطريق أَخَّرَاه فيتركه للمبيت عندنا ثم يعود ليأخذه في اليوم التالي، ليس في أول اليوم، بل بعد غياب الشمس. يوصيه دائما ألا يُغضِبَ "البيه الصغير"، لم يكن يبالي بمستجدات التورم حول عينيه وسحجات وجهه، كانت لعبتي المفضلة هي تصويب الكرة في

رأسه الكبير دون أن يجرؤ على اتقائها بيده أو بإشاحة وجهه؛ اتقاء الضرب جُرم، كنت أخبر أباه إن أشاح وجهه فيعاقبه فورًا باللطم والسَّب، لم يَبُحْ بلعبة التعري رغم تأففه، ذلك كان يوفر للابن وجبتين دسمتين على الأقل وكيلة أرز شهرية وكيزان ذرة وبقايا طعام يجمعه أبوه من فتات موائدنا. شججت رأسه يومًا بحجر، انفجر الدم من مقدم جبهته لحظة وصول أبيه. سأله لائمًا "عمَلت ايه يا متعوس؟" فلم يجب. وقفتُ غيرَ عابئ أمامهما. وصَلت أمي، سألها أبوه بمذلة عن حفنة بن، أعرف كانت أنها تقدس بُنَّ أبي، خلع عِمَته وسدَّ بها الجرح. قالت مقترحة لخادم: "تراب الفرن". اكتنزت عينا عامر وهو ينظر إليّ بغضب أحمر، وبدهشة عجيبة من فتور غضب أبيه...

لم يتوقف عن اللعب معي إلا حين مات أبوه؛ آثرت أمه أن يعمل بعافيته، ينقل ظهره الصغير حِملَ تبن أو يَعب القطن ويحشي الأجولة بالأرز، ينظف روث البهائم، يسحبها من الزرائب إلى حيث ترعى، يجمع الروث المتساقط منها لتصنع به أمه الجلة، ينزح البالوعات "والطرنشات" أمام البيوت؛ رائحته زهدتني فيه؛ نبذته تمامًا .

حاول عم فخري كثيرًا أن يفرض عليَّ صُحبةَ ابنه "محجوب"، لكنني كنت أكرهه. كان ساكنًا ككيس قطن، قذرًا لا يتوقف لعابه عن تسييل ريقه،

بليدًا، غير أن تعريه كان متيعًا؛ يحمل آلة كخرطوم الفيل، كثير الفرار والاستخفاء، لا نجده آخر النهار إلا نائمًا في الزريبة تحت أقدام البهائم. كانت له عادة غريبة لم يسبقه إليها سابق في قريتنا، مصَّ ضروع الأغنام والأبقار، يستدر اللبن مباشرة من مصدره، يستحلبه ساخنًا كصغار الشياه والعجول. الأعجب أن أباه، الذي لم يجد حلًا جذريًا لمنعه عن تلك العادة التي سببت له رفسات وكدمات حتى اعتادته الأغنام، تفنّن في كسر مقاومة الغنم والنوق؛ أصبح يصبر على الوالدات فلا يسمح لأحد بحلبها حتى يؤلمهن الضرع فيستَجِبن لفم محجوب، علمه تحنين الأبقار، سمح له كثيرًا أن ينسَلَّ بين صغار الجديان آملًا أن يجد ابنه "حلبة" فارغة. كلما جاءنا تسلل بعد قليل نحو الزريبة لممارسة عادته.

كان كل ما حولي في خدمتي، صدقني، كنت مختلفًا قبل أن أولد فلم يلُمني أحدٌ على أي اختيار؛ لم يكن كل ما مضى لينتجَ نسخة مشابهة لهم، وكنت، ربما أقول للأسف، سيدًا لتصرفاتي. أخنق القطط بيدي فلا تلومني أمي إلا على اتساخ يدي. لكم تمنيت أن ألعب دور الضحية، لكنهم كانوا لا يتقنون اللعب حينها، لا يملكون حماسة حقيقية ناتجة عن صراع حقيقي، يصبحون فاترين، كتلك الفتاة خبيرة الصيدلة ابنة الديكتاتور التي سأخبرك عنها لاحقًا.. أنشأت نظرية دوائية خاطئة، تجرأ شخصٌ عاديٌ على التعديل

فكان جزاؤه دمارًا شاملًا؛ لم يكن يعرف أنه من المسموح مناقشة أبناء السادة أحيانًا على سبيل الادعاء الديمقراطي في حالته، أما أن تُخَطِّئهم فذاك مروق، اتقاء الكرة التي سترتطم بوجهك جُرم، يالروعة عامر...

الموقف الثاني كان صباحِ يوم عيد أضحى. كان أبي قد فرغ لتوه من ذبح عجل بعد صلاة العيد. جاءت زوجة عمي عابد وأبناؤها الثلاثة الصغار بملابسهم البيضاء البسيطة، ثلاثة أبناء زَيَّنَت رؤوسهم الطواقي البيضاء. حاولت الاقتراب منهم لكنهم التفوا حول زوجة عمي. انتظروا جميعًا في المنطقة التي يقف عندها الخفراء والفلاحون ولا يتخطونها، سلمت على زوجة عمي ذات العينين الحزينتين والكبرياء النبيلة. كان عمي عابد حديث عهد بالموت وكان واضحًا أنها جاءت لحديث مختصر مباشر، لتضع النقاط فوق الحروف. لم يكن في عينيها اندفاع ذلك الفلاح وشجاعته المؤقتة المشحونة، بل شموخ راسخ لم يُزرِ به كيد الزمان وهضم الحقوق. تهلّل وجهُ أبي حين رآها:

"جهز يا بني كيس لحم محترم لولاد أخوي".

لكنها لم تأتِ لسؤال منحة أو عطية واهب، كانت مختلفة، لم يساندها أحد، الناس في بلدتنا يتميّزون بالقناعة والرضا، لو قطع الحاكم لهم أُذنًا

لفكروا على الفور في حمد الرب أن أبقى لهم الثانية، ولو تجرأ مقطوع الأذن على الاعتراض للامه الآخرون على طمعه.

منحتني زوجة العم ابتسامة كريمة مشوبة بحزن دفين، التقطت يدي في هدوء شفيق. أتت أمي كمن أمسك بجُرم، عالجت بيديها موضع لمسها كأنما تنظفني من تراب.

انتهى الحوار بسرعة، لست أذكره. قالت زوجة عمي ما قالت في ثبات وحسم. ماج أبي كالمحيط وأطلق الموج والحمم، لم يكن خفيًا حتى على صبي في سني أنه كان يقطع عليها الأسباب ويُؤصل وضعًا يريد دوامه، رأيت الناس يتبعون هذه الخطة كثيرًا، يبتلعونك قبل أن تحاول النظر إلى الطعام.

رغم سطوة الصوت ولغة الجسد، لم يكن سهلًا على صياحه أن يبتلع ذلك الجدار الذي صنعته تلك السيدة الشامخة؛ كان رغم جبروته مهتزًا كالفلاح القتيل، ليس سهلًا لمثل هذه الكبرياء في عينيها أن يموت برصاصة؛ يبقى عبق الكبرياء في المكان حتى بعد زوال صاحبها. انتهى أبي من محاضرته الطويلة، التف جهة القصر ومضى منهيًا الحديث والأمل، تابعته السيدة بعينيها في هدوء ثم مضت وخلفها أبناؤها الثلاثة بطواقيهم

البيضاء المطرَّزة بخيوط ذهبية، لم ينظر أبي إلى عم فخري، كان الثعبان متربصًا يريد أن يقرأ في عينيه أي أمر .

اقترب أحد القائمين على تقسيم العجل وبيده كيس لحم كبير، تلقّاه عم فخري وتبعها مناديًا فتوقفت، قدَّمه لها في انحناءة مبالغ فيها، نظرت إليه بفتورٍ ثم أعرضت واستكملت رحيلها. بقيتُ قريبًا منها خشيةً من نظرة تسدد لصاحب الرصاص. قال بتوسلٍ وهو يمد كيس اللحم:

"عشان خاطر العيال".

لم تلتفت ولم تجبه.

بلغ أبي بعد ذلك أنها التجأت لبيع البيض والزبد والجبن القريش على الناصية البعيدة. شَكَّلَ ذلك عليه ضغطًا كبيرًا. صاح غاضبًا في وجه عم فخري حين أبلغه الخبر. بقي مضطربًا ساعة أو ساعتين، لكن عم فخري حدثه عن عظمته وشأنه الذي لا تهزه الرياح، "الناس هكذا، لا يقدرون جهد من يعمل لصالحهم"، حدثه عن المجد الذي سيصنعه لأبناء أخيه، عن إنماء ثروتهم، عن حداثة سنهم وضخامة التركة ودعا الله أن يعينه على هذا الحمل الثقيل، ويعينه على وجه مخصوص، على أولئك الذين لا يقدرون تضحياته.

رغم ذلك، ذهب أبي إليها. شيء في هذه السيدة لم يكن يستطيع هزيمته بالتجاهل. أحسست بارتباك في البيت وفي الزمرة وفي الوقت والمكان؛ امرأة استطاعت أن تضغط على الإله؟

ذهب بزمرته ورجاله. توقفت الخيل عند موضع جلوسها، كنت رديف أبي كعادتي. كنت أعرف مشاعره حين أسمع نبض قلبه؛ أعرفه حين يكون مبتهجًا وحين يكون غاضبًا، في هذه المرة كان مرتبكًا...

كانت قد رصَّت بضاعتها تحت ظل نخلة، صحنٌ معدني واسع ممتلئ بالجبن القريش وقُفَّتَان فيهما بطٌ مقيّد، ومشنَّة بها العديد من الأرغفة وإناء كبير فيه بيض وأكياس من ورق مقوى وميزان وأصناج. ظلت على جلستها حول صحن الجبن حين وصل الركب، لم تعبأ بأبي ولا بالرجال، لم يسؤها إلا عفار سنابك الخيل على بضاعتها. ابتدرها أبي:

- بتبيعي جبنه؟ عايزه الناس تاكل وشِّي يا عايدة؟
- الناس نايمين، متخافش م الناس يا فايق، خاف من رب الناس.

هكذا نادت أبي، باسمه مجردًا، ظل على حلمه وصبره؛ عصيّة هي على أدواته ونظراته ومركزه؛ كانت فوق كل سلطان.

- ناس عاقلة، عايزين يقضوا أيامهم من غير وجع راس.
- زي عقلك مع "الخُط" بالظبط، كل ظالم له اللي أشد منه يخزيه.

كأنها أوقعه الحصان بكلمتها الأخيرة. الهزيمة باترة. لسانها حارق وقلبها لا يعرف الخنوع. ذكّرته بجارح كرامته. سقط من شاهق كبريائه. قاوم الطوفان الذي يمور بداخله وارتد إلى الموضوع الذي جاء من أجله:

- شوفي بيطلعلك كام ويوصلك لغاية عندك.
- شوف هيموت كام راجل وتنجد الغلابة ف نجع "النابلسي".
- خلينا في اللي باكلمك فيه، ماتحطيش روسنا ف الطين يا مَرات عابد.
- ميرفعش راس العمدة إلا العدل يا "فايق".

لم تكن تنظر إليه ولم تتوقف عن ترتيب قطع الجبن ورص البيض في الأكياس. جنح للتهديد

- إن ماكنش عشان خاطرك، اعملي خاطر للعيال.
- العيال؟ اللي هيقرب للعيال هاكله بسناني.

أرهقه جمودها، أحرجه خطابها الذي يتسم بالندية ويُشعره بالصغار أمام الزمرة، أُسقط في يديه.

لم يكن باستطاعة عم فخري معالجة مثل هذا الأمر. حاول أن يتكلم في هدوء. ثنى يديه النحيلتين وأطبق كفيه الصغيرين؛ حاول أن يبدو حكيمًا بكل الطرق:

"عايزين نلم المواضيع من غير فضايح يا ست عايدة، اللي بينا وبين بعض كبير، والدم عمره ما يبقى ميه، دوري على مصلحة ولادك، انت ست حكيمة".

شفّع كلماته بابتسامة لزجة كللتها نظرة عاطفية لا تليق بجفاف الموقف.. وضعَت كفتي ميزان فارغين ثم نظرت حولها، ادّعت أنها لا تجد شيئًا تزنه فوضعت بيضة واحدة على إحدى الكفتين فمالت الكفة ميلًا قليلًا، ثم رفعت رأسها فجأة عن وجهٍ ممتلئ بالصرامة، نظرة جعلته في لحظة كفرخ منتوف الريش:

"مهما كان اللي بينا، لسه مدخلوش دم نجس يا فخري، ابعِد انت بس وهيا تعمر".

ملأت المكان بعنادها، زرعت الفراغ في قلوب الرجال، لم يعدْ أحدٌ قادرًا على نطق كلمة.

صَمَتَ فخري لكن عينيه كانتا مليئتين بالكراهية، حنى رأسه ونظر إلى كفه الصغير نصف المضموم.. لاك الثعبان المخضرم، الذي كان أشد فتكًا وسُمًا من كل البنادق، السم في فمه. انتظر الأمر ليبصقه، لكن أبي قال بصوت متهدج وقد ملأه جوابها الأخير بشيء من البهجة الآملة أن تلين قناتها:

- لو عابد عايش مكانش يرضى بكده يا "عايدة".

تحبّب إليها بنطق اسمها بطبقة رقيقة، لكنها تحيّزت لصلابة جدارها فورًا. قالت في نغم حزين ترققًا لاسم عابد:

- عابد؟ عابد كان كافي خيره شره، كان بيمشي جنب الحيط، الدور والباقي ع اللي ميملاش عينيهم غير التراب.

شعرتُ برجفة الغضب تعود لتملأ قلب أبي، تغافل الرجال عما يسمعون، لكزوا خيولهم لتنأى عنهما. ملأ وجهها التحدي. هزَّ أبي الحصان بمهمازه، كدت أقع، شعرت أنه نسي أنني خلفه..

مضى كالريح. خفت مرة أخرى من عم فخري؛ خفت أن ينظر نظرة لمصوب بعيد، لكنه ما إن وجده نفسه وحده أمامها حتى انطلق يجري خلفنا ككلب مذعور.

نظرت خلفي، وجدت عينيها تحبني، منحتني نظرة خاصة، استثنتني من كل ما يحدث، قالت عيناها إن في الغد أملًا، أنا تجسيده.

*****

قبل هذا بوقت قصير، بَلبَلَ ذهنَ أبي ظهورُ "الخُط" الجديد، عفريت في نجع النابلسي، طاغية أقضّ مضجعه وحرمه الوقار، أذاق الناس الويل في النجع المجاور، كان يحرق المحاصيل ويقتل الآمنين في بيوتهم ويستحيي النساء ويستضعف الرجال ويفرض "البِرطيل"، يجُبُ الرقاب بالمناجل ولا يتورع

عن بقر بطون الحوامل، قالوا الكثير عن ملامحه الطاغية وشاربه الغليظ وغضب الله على وجهه، باطشٌ غشوم بلا حياء ولا ورع. ورغم ذلك، لم يعدم الناصرين من النجوع التي تريد أن تأمن شره من جهة، والتابعين من أهل نجعنا نفسه، والخائنين بالطبيعة، "والفخريين" الكُثرِ في نجع النابلسي.

5

أمي، شعلة الجمال والغموض، امرأة أسطورية، حضورٌ قادر على احتواء العالم، وعقوقٌ يكفر في لحظة بكل شيء. تخاف من نفورها حين تُقبل وتتوقع إقبالها حين تنأى، شامخة لكن وجودها محل شك. لا تعبأ أبدًا بالتيار. تعشق التحدي في أشد لحظات الضعف ثم تجدها مائلة للخنوع وهي في أوج السطوة والسلطان. لا شيء يهزمها سوى سرعة انخداعها بالرجال، دائمًا تسيء الاختيار. اتخذها أبي من أسرة عريقة معروفة تنتمي بنسب ما إلى العم فخري، هو الذي اقترحها على أبي؛ كانت رغم ذلك تكرهه. كلما كنت أتوغل في حياة أبي كنت أجد أثر هذا الرجل.

كانت زوجته الثانية بعد زيجة لم تمنحه الولد الذي تمناه، كنت أنا هذه الأمنية. قَطَعَت علاقته بكل ما سبق، منعته عن زوجته الأولى تمامًا، حكمته وهو يظن أنه يحكمها، احتوته وهو يظن أنها طوع يديه. كثيرون ظنوا أنها سحرته بتعاويذ لا يعلمها أحد، أسكرته بعشقها. هكذا هي، ساحرة، تمنحك لمسة منها الشعور بالخلود وأنت فان، تظن كثيرًا أنك تلعنها بينما أنت رهن الإشارة، لغز لم يستطع أبي أو غيره فكّ طلاسمه.

*****

لي أخت من زوجة أبي السابقة، لم ألتقيها غير أيام العزاء، كانت مفاجأة مدهشة ومحيّرة، لم أدر منذ قابلتها إلى أن ماتت ما هو الشعور الواجب نحوها. أيمكن أن تنمو الأخوة على البعد؟ أن تظهر فجأة؟ لست أذكر منها غير فتاة تشتهي القرب ودهشة عينين صافيتين. بقيت طوال عمري أحن لهاتين العينين بلا محاولة للقربى؛ الخزي الذي وسموني به وقسوة الماضي كانا يمنعاني دائمًا. كانت لها عقيصة شعر لامعة وابتسامة كالسحاب، جبينها عريض كجبين أبي، تأكل قشرة شفتيها بأسنانها مثلي، أتعرف؟ المرء لا يتوقف عن أكل قشرة شفتيه بأسنانه إلا حين يكبر، في صغره يستخدم أظافره في قرضها... بالمناسبة، لماذا ترتدي هذين القفازين؟

كنت أحدثك عن أختي، فَرَّق بيننا نزاع الميراث أولًا، ثم إحساسهم بالعار ثانيًا. لم تتزوج حتى ماتت؛ قالوا إن الأزواج امتنعوا عنها بسببي. لعلي لعنة ما زالت تتبعها في قبرها. أما أمها، زوجة أبي الأولى، فقد انتهت سيرتها منذ هجرها أبي، لم يبق منها غير أحاديث غائمة، أخرس التاريخ ذكراها وغامت معالمها فنُسيَت.

مات أبي فانهار كل شيء؛ سقطت مِنسأة سليمان فأدركت الجن كم هي خائبة وتافهة. أفاقت الزمرة على ملك كبير وثروات بلا نهاية. ساد الأوباش. عاثوا في الأرض فسادًا وبغيًا. اقتنصوا كل ما وقع في أيديهم، بدءًا

من البهائم حتى ضعاف النساء اللائي بلا ظهر يحميهن، مرورًا بالطعام وكبرياء البلد وكرامة الرجال. استخدموا الرعب القديم وجبن البشر وأبواق البأس والقوة. هددوا الناس بالخُط، أفهموهم أن انصياعهم لهم معناه تأمين القرية من هجماته، بثوا الهلع في النفوس. الناس تكمن كالجرذان تيسيرًا على المغتصب، بعضهم سلّم ممتلكاته طوعًا وطمعًا أن يكتنفه الأمان، وكثيرون هجروا البلد بما فيه وذابوا غرباء خافتين في بلدان أخرى، كثيرون تمنوا أن يُقاتلوا الخُط وكثيرون انضموا لعصابته، بعض من قاوموا انتُهكوا إلى أبعد حد، بدءًا من قلع الأظافر حتى وطء نسائهم أمام أعينهم.. أما الأكثرية فقد اختاروا ما جُبلت عليه طينتهم، الخنوع.

كان وقتًا عصيبًا، كل شيء فيه جائز تحت سطوة الخنوع ورخاوة الانقياد. العبيد دائمًا يشعرون بالتيه والفراغ عندما يتنفسون الحرية فيبحثون عن سيد. سادت الجرائم وانتشر القمع، قتلٌ وخطفٌ، حرائق وهلعٌ، وباء اجتاح البلد، كثير من الرجال اختفوا؛ كثر النحيب في القرية وعويل النساء. ودائمًا، كان عم فخري خلف كل جنازة، مشيّعًا، معالجًا للأمور. كاد يشملنا الضَياعُ، تقلّصت الضِياع فلم يبق إلا تاريخ خُدَاج خاوٍ من الداخل لكنه ما زال براقًا في العيون. اهتزت الأرض الصلبة التي أسسها الماضي العريق تحت أقدامنا، صفحة جديدة كادت تودي بكل ما سبق. أفاقت أمي من

غمرة الطوفان. اتخذت مكانًا عليًا واستشرفت مسار الموج، كانت في منتهى الذكاء والحيطة رغم إحاطة الأخطار، استجمعت نفسها بقدرة ساحرة، أعادت أَزِمَّة القياد في لحظة استفاقة، أبقت الأقوياء حولها، ظل عم فخري بجوارها، أعاد أزمّة الزمرة قبل انفلات زمامها، ذكّرهم أنهم في لحظة مجيدة، أما أن يركبوا المجد أو يُغرقهم الموج.

كل ما طلبته الرجال حين استقرت الأمور هو أن يجري عليهم ما كان يجري أيام أبي، الرواتب والسطوة على رقاب البشر، أن يكونوا مهابين في العيون، وأن يتبعوا سيدًا؛ حتى الطغاة لا يتقنون الحرية، يبحثون عن طاغية أفجر لينقادوا تحت لوائه. تطَّلع التاريخُ لصناعة بطل، أي بطل، وهمًا كان أم حقيقة. يحضرني الآن وأنا أقصص عليك القصص سؤال هيجل، أيصنع التاريخ البطل أم البطل يصنع التاريخ؟

اقتنت أمي كل ما اقتناه أبي من جاه ورجال وسطوة. فرضت طيفًا وهميًا من حضورها حتى يستولد التاريخ قائدًا. انصاعوا وأطاعوا؛ المجد للسيدة زوجة السيد، المجد للسيدة. أما أبي نفسه فقد انقلب قلبها جهة ذكراه انقلابًا لم أجد له تفسيرًا، توقفت عن ذكره ثم صارت تكره الحديث عنه. ثم تطور الأمر إلى أن صارت تقبل أن يتحدثوا عنه بسوء؛ شيئًا فشيئًا أصبح إرضاؤها يكمن في ذمّه. مضى إلى طي النسيان في فترة وجيزة. بلغت

أذنيَّ كلمات أهون من سماعها الموت. لم يكونوا يتحرزون وصولها لأذني: "لم يكن يعنيه إلا جمع كل شيء بين يديه"، "أفقر البلد فافقده الخُطُّ رجولته"، سمحت بترديد كل هذا وأكثر، كانت تطرب لسماعهم يهدمون مجده، كأن الحطَّ من شأن أبي يمتعها...

- لقد كان جبارًا.
- استحق الردم في مزابل الماضي.
- نهب أخاه.
- سرق أبناء عابد الطيب وأحرق قلب زوجته.
- قتل المزارع.
- أفقرنا وأحرق قلوبنا، أحرقه الله في الجحيم.
- كان أسدًا علينا وقطًا مع الخُط...

الخُطُّ، ذلك الجبار الذي ظهر في نجع النابُلسي، زمامٌ غير بعيد عن يد أبي. يقولون إنه فضَّ ألفَ بكرٍ، أجبر أهل النجع على أن يقطف زهرة كل عروس قبل أن يلِجهَا عريسها، يحرق حيًّا من اعترض، لا يتورع عن إطلاق النار على الفلاح الذي يلقاه فلا يخلع "البلغة" ليضعها تحت إبطه. حوله رجالٌ بلا قلب ولا ضمير، يشربون الدماء ويأكلون قلوب أقويائهم ومصارعيهم حين يموتون، يَعدُّ أبطالُهم هذا مجدًا؛ يظنون أنهم بهذا يستنقذون أرواحهم من يد

الموت لتحلَ في أبدان محبيهم. يرى حكماؤهم أن التهام قلوب الأبطال يمنح الرجال قوى أسطورية وعمرًا مديدًا وقدرة على مواصلة الجماع وصلابة عضلية تلهب النساء حين يمتطين السروج. كان أبي وزمرته يسمعون عن ألوان أجسامهم الحمراء وشواربهم المصبوغة بلون الدم فيدَّعُون الاستهانة.

كانت نساء النجع يعيِّرن الرجال في خدورهن بما يسمعن عن متانة النبابيت في نجع النابلسي. بعضهن كن يحلمن بالوطء اغتصابًا ممتنين لادعاء المقاومة ولحظة الاستسلام.

أرسل أبي بعض الرجال في مواجهة لم تقم إلا على نعرات القداسة والنبابيت الخائبة، كان العدد كبيرًا لكنه مرتخٍ. لم يتحسّبوا بتاتًا لقوة خصمهم فأذاقهم المهانة والذل. عاد الرجال منتوفي الشوارب والحواجب يرتدون جلابيب النساء، أصغرت هذه المواجهة أبي كثيرًا، طمست كبرياء البلد، حتى الذين يمقتون الزمرة عذّبهم الخزي. أدهشَ أهلَ البلد أن يروهم في هذا العار. أدركوا أن ذلك الخط كبير، ليس مجرد ظالم يمر ثم يفنى كما حدث لكل طغاة بلدتنا والبلاد المجاورة.

ربما هنا بدأ الكمد الذي أسقط أبي، وربما أيضًا هنا تجدني أتلعثم في سرد الحكاية، نهاية مخزية لا تُنسى ولا تخبو. هاجم الخُط نجعنا، استباح وأباح لرجاله كل شيء، ما زلت أرى النار وأشم رائحة جلود الرجال والأطفال

ونظرات عين المواشي المؤسية. أسروا أبي، جندلوا الرجال وصفُّوهم ثم ربطوهم بالسلاسل، تركوا النجع كاليباب؛ أرضًا خربة ونفوسًا ساقطة، سبُوا الكثير من الصبايا، عيونٌ تهمي بدمع سوّده لون الكحل، طُرحُ النساء ملقاة فوق أكتاف النساء بإهمال، تراب النجع يشكو المهانة، وارتحل الرجال أسرى. اختبروا معدن عم فخري فوجدوه خسيسًا، علقوه من قدميه فوق جفان يغلي الماء بداخلها، عرض عليهم أن يكون رجلهم إلى الأبد فتركوه. أما المجد الذي منحه الخط لأبي، فكان قتله دونما تعذيب، وأنه استأثر بقلبه لنفسه.

*****

أصبح عليَّ أن أتقبل فكرة أن تسير الحياة من دون أبي؛ كشمس إبراهيم لما أفلت. أما جمال السيدة وأناقتها فلم يأفلا، يتصاغر البدر فيصير هلالًا ثم محاقًا، لكنه أبدًا يعودُ كاملًا. وكان كفاحها حول فتنتها لا ينتهي.

كننت بالفراغ؛ كأنني جذعٌ يابسٌ لا يخصّ أحدًا. كلماتهم عن أبي أوجعت قلبي وروحي، نُكران أمي سحقني، أحسست أن عظامه في قبره تصرخ ولا يسمعه أحد. عرفت الفراغ، ضعت في هوة سرمدية؛ كل ما كنت أبتغيه أن يضمني أحدهم، أن يحبني، أن يقضي وقتًا معي، لحقني الإهمال كمكتبة أبي ونرجيلته وحصانه والبن اليماني.

خلف منزلنا بحيرة رمادية، أحببتها في الشفق والغروب. اعتزلت الناس هناك. أشفق البحر الهادئ والليل الوسنان على قلبي فأخرجا لي من البحر جنية لم تبث الرعب في قلبي؛ بدت رحيمة القوى، خجلى في ضوء القمر الشاحب...

قالت صاحبة الشعر الرملي الساحر والعينين البراقتين:

- ماذا يبكيك أيها الغر الجميل؟ كان أبوك سلطان الأراضي والبحار، وعلى متني كم ارتحل، قل ما تريد ولا تخف.

كان البرد قارسًا والريح لاذعة تصك جسدي بضراوة، وكانت الأشجار عارية من أوراقها والماء ساكنًا. لم يكن هناك من سيفتقدني إن أخذتني الجنية حيث تعيش. للحظة، فكرت أن أسألها الصحبة إلى عالمها الساحر، لكنني انثنيت متراجعًا، قلت لها دون أن يبدو عليَّ الاهتمام أو الوجل:

- شخصًا يهتم.

*****

6

جاء متسللًا في ظلام الوقت وهشاشة المكان، ربما كان وراء كل ما حدث وربما صنعته الظروف. أدرك أن السطح يدّعي الصلابة والمجد ليس سوى طبقة هشةً. كان الزمان يدّعي التغافل، سامحًا لأي عابر أن يتصدّر المشهد. ربما كان كل شيء من صنيعة عم فخري. لم يكن مجرد عابر عادي، كان خلف الستار منذ ترنح البطل على المسرح. همست الجوقة باسمه خافتة ثم تصاعد الهمس حتى صار صراخًا. جاء بالدهاء والدماء، لم يتخذ وقتًا طويلًا لجمع أزِمَّة القياد من مدّعي القيادة. أزاح القائد الوهمي الذي ذهب للصلاة ولم يعد، نسيته الزمرة وظن الناس أنهم لم يرَوه من الأساس. رأت أمي المدرس الوسيم كالحلم والنبوءة، ورأيتُ نابيه منذ اللحظة الأولى يبرقان رغم عينيه الوادعتين. ولكنني، وكذلك أمي، كنا في حاجة لمثل هذين النابين لينغرسا في لحمنا المستكين؛ ليس أسهل على الصياد من فريسة مهيضة وطفلٍ بلا حيلة، مضغة جاهزة تتوق لمن يلتهمها، الثمرة ناضجة ملقاة على الطريق، سانحة لأي لاقط، فالتقطها هو.

كان مدرس اللغة الفرنسية هو البطل المنتظر. التاريخ مثلنا، ينخدع بظاهر اللفظ ويقع في المصائد، البطولة لا تشترط شهامة النفس ونبل الطباع قدر ما تقتضي مواهب أخرى، طلاقة اللسان، وربما حجم العضو. ما إن ظهر حتى ساد وما إن ساد حتى طغى. صَفَّى الزمرة ولم يعدْ فيها شركاء رأي، ليس سوى مُلبي أوامر ومنفذيها بلا تفكير، أطعمهم مالًا ونساءً وجاهًا وسطوة فوق الرقاب. منحته أمي المساحة والصولجان، فتنتها طريقة إمساكه بالسيجارة بين إصبعيه. امتطى فرس أبي، التقم نرجيلته ثم لفظها؛ فضَّل السجائر. غمرني الطوفان ضمن ما غمر، لكنني كنت مستمتعًا بزَبده وموجه، عدتُ للوجود.

أليس هذا تاريخًا أيضًا يا صاحب التاريخ؟ عذرًا، ليس هذا السؤال مُقدمًا إليك، أعني شخصًا آخر، تذكرني به عيناك وصلابتك ووجهك، لست أدري لماذا يسيطر على نفسي الليلة وجوده؟ أتريد قليلًا من القهوة؟ للبن الذي عندي مذاقٌ لن تجده في مكان آخر، سأفعل كل شيء أمامك. "السبرتاية" التي لديّ تاريخية، هذه "الكنكة" سوَّت آلاف الفناجين ولم تزل براقة. بهذه الأدوات كانت جدتي لأبي تصنع القهوة لجدي، وكانت أمي تسطو على قلب أبي وروحه بفنجان قهوة. أتروقك جلسة سلطانية

وبيدك نارجيلة سلطانية، وأنا تحت قدميك أرصُّ الفحم وألقم المبسم فأشعل الجمر بأنفاسي ليتلاقى الوهج بالتبغ؟

لا تبحث في شأني عن أسباب. تبقى الاكتشافات العظيمة كبيرة رغم تفاهة الكاشف الذي كشف المسار، آلاف الفلاحين أسهموا في شق الترع، كلهم ماتوا وأكلتهم الأرض، لكن الترع باقية. العَظَمَةُ الجارفة التي تروي الأراضي وتسقي البهائم وتنبض بالحياة، ربما اكتشفها عابرٌ لم يحركه سوى العطش. أنا الذي اكتشفتهم، أنا الذي فهمت قانون الشرف في هذا البلد، أنا الذي قلت للإنسان كن ما تريد. كلهم أبدوا اشمئزازًا وتقززًا لكنهم كَذَبة أفاقون، كان رجاؤهم الوحيد هو الحفاظ على السر.

ما الذي يدعوك للصبر على سماع الحكاية؟ لماذا أشعر أنك تتطلع للمزيد؟ أعرف الإجابة.. أمثالك يتخذون الوقت الكافي لاتخاذ قرارهم.. بطيئون كالسلاحف لكنهم حاسمون كوحيد القرن، الوقت متاح فلا تقلق.. نفذ ما جئت من أجله في النهاية...

يموت الأب فينكشف الجدار وتنهار السُقُف، تبدأ الأنفس في كشف سرها، تُخلَع جميع الأقنعة، كلٌّ يكشف عن ذاته لينال نصيبه من الكعكة. كشفت الأم عن وجه بغي حين اختلى ثلاثتنا في المكان. المسافةُ بين الوفاء والنفور اشتعالُ رغبة. عرف المدرس في اللحظة الحاسمة موقع الثغرة

فاحتل العاصمة، ثم دلف إلى الميناء، مكسب إضافي ملقى على قارعة الطريق، التقطه أيضًا. سيطر على الزمرة، لا أحد يدري كيف كان ذلك. ظهر بصحبة عم فخري؛ النغمة الهادئة التي تسري حثيثًا لكنها تعلو فتسطو على الأسماع في النهاية، كلمة السر لعصبة الرجال ولأمي وللجميع، احتواه فعالج له الأمور..

الباب الموصد والواجب المكثف، صحّح هذه الكلمات وعيِّن الخطأ، صِل هذه العبارات ورتّب الجمل، يلاحقني أنينُهما. أمتعني تتبعهما حين ظناني غافلًا. صارت كل الأقاليم متاحة. نظرة الظَفْر ونظرة الامتنان في عينيهما. لم تعد قواه الغاشمة تعبأ بالممكن والمتاح، ولم تعد الملكة الأرملة تعبأ بالصغير، فليشاركنا النخب، تحرّرَت من كل قيد وأطلقت كل اللُجَم. لم تكد تمر سوى أسابيع بين النواح على الأب وبين الغنج في الغرفة المتروسة بالمزاليج الصماء ما بين سرير أبي والمكتبة. ملأتني نشوة غريبة مصدرها البهجة التي سيمنحها عريُهم لأبطال الروايات المتراصة، سيبصرون كل شيء، المؤلفون خونة، يظنون أنهم بمواراتهم والتفافهم حول الحقائق سيداورون بوحَهم، تصورتهم مدججين بأقلامهم باسطي أوراقهم يعبِّر كل واحد منهم بطريقته عما يشاهد.

كانت صادقة في الأسى وصادقة في الجنون، حطمت ذلك الإطار الذي أرادوا أن تُعتَقل داخله "الزوجة الوفية التي تكرّس عمرها لذكرى الفقيد ورعاية ثمرته"، "هو الذي مات فلمَ أُحرم أنا الحياة؟ أيريدوني أن أبيع الخبز والبيض على الطرقات؟". قررت أن تسقط بلا مواربة، نحن هكذا، حزننا الكبير يتلاشى في لحظة كالرماد. طوال عمري أراها عصية على الأطر، أكبر من كل القوالب، وتفعل ما تشاء حتى لو كان قاسيًا، وقاتلًا.

كان مدرس اللغة الفرنسية غنيًّا بالملامح الحاسمة والإرادة الثاقبة وسحر الكلمات وعم فخري. في فترة قصيرة أصبح كل ما حولنا طوع يديه. لم يكن وجهه ينم عن أي انفراد، فارع الطول أعسر عيي الذاكرة، أقنى الأنف، لديه تلك القدرة الفائقة على رصّ الكلمات، يتسم خطه بالأناقة والتناسق والصرامة، انحناءات خطوطه على السبورة خبيثة، زاحفة بمكر، عيناه فيهما ادعاء، لا شيء في صوته الغليظ صادق.

تولى عم فخري إقناع الرجال، "أطيعوه فإنه البطل الذي أرسله الله في الوقت المناسب لينقذ كل شيء".

*****

أثناء شرحه لدروس اللغة الفرنسية، لم يكن يشرح الدرس بقدر ما كان يبرز عبقريته اللغوية ومهارته في النطق، تشعر دائمًا أنه فوق خشبة المسرح، مستخدمًا إشارات يديه وتعبيرات وجهه. كل ما يأسر المشاهد كان يتقنه، وكان يتقن إيجاد نبرة الصوت الملائمة لكل درس، خاصة لأن الأرملة كانت تتابع كل همسة من طرفٍ تدعي خفاءه وهو ظاهر ببطن الكواليس. وما إن ينتهي العرض حتى يعود إلى قحته وهيئته الطامعة الطامحة في الوصول لكل شيء، المسرح والإخراج والأوركسترا والممثلون.

ما زلت أشعر بالغموض كلما سمعت كلمة فرنسية لا تفارق لسانه "Scelerat"، يرددها كلّما أولاه محدثه ظهره، لم يشأ أن يشرح معناها ولو مرة واحدة، لكنه كان يختم بها كل حديث مع الشخص الذي يحدثه، خاصة من الزمرة. كان يحتقرهم، عرفت بعد ذلك، حين انتقلت لمرحلة الثانوية العامة، أنه كان يعني بهذه الكلمة "الوغد"، تضاعف غموض الكلمة عليَّ في اللغة العربية كما حيرتني في نطقها الفرنسي؛ لفظُها خاوٍ، شيء مثل الجوع، كأن حيزًا من الفراغ لا بد أن يمتلئ، ما هو الوغد؟ حيوان أم جماد أم إنسان بغيض؟ فضلًا عن أنه كان ينطق حرف R كما لو كان "غ" أو لا شيء في حلقه، ولا ينطق التاء الأخيرة من الأساس "سلي غا"، كلمة ينقصها الشبع والامتلاء والوضوح والانتصاب، يعوزها البوح الحقيقي، لا

يمكن أن يكون الشتم بهذه الأناقة. أنبأني المعجم العربي حين بلغت المرحلة الثانوية أن الوغد هو الرَّذْلُ الدنيء. ظللت حائرًا حتى أدركت المعنى بالمدية بعد أن عجز القلم، الوغد هو صاحب نُدبة عَفِن، يبصق كل دقيقة، يسعل وهو يقود سيارة متهالكة تئز بين الملل والعرق، يتقاسم فرجًا واحدًا مع آخرين، دون أي اعتبار للقلب الملائكي المذهول من حقارة البشر، يبول ولا يستبرئ من بوله، يأكل ويشرب وينتهك أجمل المخلوقات حيث يبول.

أما ذلك المتأنق، ذلك المدرس، فكان مستعدًا دائمًا، نظيفًا إلى أبعد الحدود، تساهم كل ملامحه في صنع هالة النصر حوله، تعبيرات يديه الكبيرتين أثناء الشرح، نظرة عينيه الحادة، معرفته بنقاط الضعف والكلمات المناسبة، كل ذلك ساعده على أن يحسن الولوج. كان ضرورةً فرضها الظمأ. ساعده الوجود في مساحة الفراغ عند جوع الأرملة. تعطُّش التاريخ للأبطال مَكَّنَه من التسلل حتى ساد ودانت له الممالك، كان متزوجًا، لكن ذلك لم يكن عائقًا، ما أسهل التخلّي عن كل ما كان سابقًا للوصول، بعد الوصول.

كان التنازل فاحشًا. الضياع كالسقوط في منحدر، لكنه كان سقوطًا لذيذًا، لذته أنه عكس التيار والمألوف وأن الكل يتبعك. تذمّر الأقارب لكن من دون صرامة؛ ردودها كانت كافية لدحرهم إلى الأبد. لم يكن شيء

ليحول بينها وبينه حينئذ، انتشرت يدا مدرس اللغة الأخطبوطيتان في كل الزوايا، انتهت إليه أزمَّة الأمور كلها. طواها، ربما بإرادتها وربما كان لسحر كلماته قوة لم تصمد هي أمامها، هذا قول مبالغ فيه، لا، ليس هذا، الصواب أنها كانت تريد كل ما حدث، بل إن الأيام كشفت لي أنها كانت تدَّعي أنها مقودة والزمام والقياد في يديها. عَشِقَتُه حد الشغف.

طالبها بتغيير المنزل فوافقته. أثّثه كما شاء فلم تعارض. استوحشتُ المكان الجديد، افتقدتُ القصر، جهتي السلم وأناقة المدخل والخضرة والبحيرة ونقيق الضفادع والثعبان واليمامة والعنكبوت النادر. بدا جليًا أنها تزداد انطفاءً، لكنه وهمٌ أحبته، تسرب الزهد إلى نفسه رغم تفانيها. شيئًا فشيئًا بدأ يعلن عن سأمه في كل مناسبة. تطور الأمر وصار يقسو عليها، لم تكن تمنعه، كلما أراد شيئًا أعطته، حتى حين أدركت خواءه وضآلة أفعاله بجوار كلماته كانت ترجوه ألا يرحل، كلما ظن الناس أنها ستتركه لاذت به أكثر وازدادت خنوعًا، يترنح كفه الكبير أمامها فتنسى كل ما عداه.

وراقبت نفسي فوجدتني أغار. أترقّب لحظة فراغه لي، اكتشفني واكتشفته، ضبطت نفسي أستكين له رغم ادّعاءات النفور. عيناه تلتصقان بروحي، يمنحني بقاؤه متعة أكثر، يقترب بلا حدود، جرح قديم استطاع أن يخفيه، منحني سرًّا صغيرًا. حاولت عنه القهقرى، لكن مؤامرة السرية

استهوتني. تطور الأمر في ادعاء دهشتي ولظى جنونه، ألمٌ كبير، عذاب فاعتياد ثم نزوع. صرت أنتظر اللحظة، أغار من قربه منها، أنتظر مواعيد الدرس، هددني بقتلها إن بُحت بالسر، ما أظنها كانت تنكر عليه لو عرفت، وما أظنني كنت أريد أن أبوح، لقد كشف لي نفسي بسحره ونفثه، شقَّ التُرعة، عرفت ذاتي على يديه، لعل هذا سِرٌ سَرَّها أيضًا. دان كل شيء للممثل الكبير، أما أقاربي، فكعادتهم، يرضخون بعد صياحٍ مفتعل.

*****

7

الطمع والغرور أعمياه فارتكب حماقة كبرى. قرر بمشورة عم فخري تصدير سطوة الزمرة إلى القرية المتاخمة للطرف الأيمن لقريتنا. كانت النجوع تتمنى هجمة على الخط، لكنه اتجه لقرية "الدُحديرة". أراد أن يستغرق في جلبة مدعاة؛ هربًا من مواجهة حقيقية مع الخط. زيادة الإتاوات والمحاصيل والرجال، اتساع السطوة، لماذا لا يصير المملوك أميرًا ثم يصير الأمير سلطانًا، ثم تتسع رقعة الممالك؟ غامر بإرسال عصابته. كانت النتيجة قاسية؛ تلقَّى درسًا موجعًا من رجال "الدحديرة"، عادت الزمرة مثخنة بالخزي والجراح. تعلّموا الدرس الأهم، أنهم لن يجدوا أهل قرية أماثل في خنوع قريتنا. قرروا استعمال سطوتهم فيها فقط ولم يجسروا على تكرار التجربة مرة أخرى، رفعوا معدلات الإتاوة داخل النجع لتعويض الخسائر.المدهش أن أمي لم تراجعه، تغافلت تمامًا، لم يكن يعنيها من مات ومن جُرح ما دام الحبيب عاد.

أما التي لم تَظهر أثناء ارتباكات الزمان وحيرته فهي زوجة عمي عابد. ذابت رغم العوز في هدوء، أيقنت أنها لحظة تحمل الأخطار، وأن الفرد فيها

بلا قيمة وأن القتل في زمن الهوان مباح. آوت إلى جبل الحكمة الصامت، غابت كي يعصم النسيان دماء أبنائها. كانت تدرك أن غضب أبي مهما علا فلن يصل إلى إزهاق أرواح أبنائها، أما مُتَولو الأمورِ الجُدد فإنهم لا يرقبون فيها إلًّا ولا ذِمَةً. ارتضت بميتة أبي وعهر أمي كعقاب أسداه التاريخ في مقابل ما اقتنصاه من زوجها، لعقَت التراب وملح الشقاء لينشأ أبناؤها نشأة أخرى، رجت الكفاف من العمل ببيوت المستورين من أهل القرية، عانت في صمت، اختفت فنسيها الجميع. لم يبلغها ما آل إليه أمري. سأقول لك كثيرًا جدًّا إنني لا أخزى ولا أهتم ولا أكترث لأحد، أما هذه السيدة، فكنت أتمنى ألا تعلم.

*****

في المدرسة يتندر الأطفال بالحائرين في طبيعة تكوينهم أمثالي. المدرسون يطالبونني أن أخشوشن. يا أخي، المدرسون كائنات عجيبة، يتجاهلون تحرّش مدرس اللغة بتلميذ الصف الرابع ويتوجهون بالنصح أو بالزجر للتلميذ نفسه، قد تتغضن ملامحهم من تصرفات المدرس، لكنهم لا يتخطّون ذلك أبدًا، لوم الأضعف قاعدة قلّما وجدت لها استثناء. بعضهم كان يتخذني هُزوًا وتفكُّهًا، كانت مدرستي الابتدائية متربة الألوان، مبنى قديم لأمير مملوكي تحول إلى مدرسة، أذكرُ بابها الخشبي العتيق شديد

السُمكِ ومبانيها المليئة بالأكنان والمخابئ، تعرف بالطبع جدوى المخابئ. فناؤها فسيح مقسم إلى ثلاثة ملاعب، أدوارها الأربعة قُسمت على المرحلتين الابتدائية والإعدادية.

أحببت حارس المدرسة العجوز الطيب، "عم عبده"، شيخ محني الظهر يشرف على كل شيء خارج الفصول وأسوار المدرسة. سمحت له الإدارة أيضًا باختراع "كانتين" بدائي ليبيع فيه للتلاميذ "النداغة والدوم والمصاصة". كنت زبونه الأمثل لثراء أهلي، كثيرًا ما كان ينفرد بي ليحدثني عن حب الله وعظمة جنس الرجال وسموه، كان دائمًا يبطن النصح الخفي عن "الرجل الجدع لا ينحني ولا ينكفي على وشه، الرجولة عظمة". لماذا لا تفهم يا عم عبده أني أشاركك عشق عظمة جنس الرجال؟ كما أنني أشاركك، أيها الطيب، حب الرب. لكن، هو الذي أرادني هكذا. هو الذي وضع المدرس في طريقي وجعلني لهذه الأم ومنحني هذا التفوق.

عندما ذاع صيتي، عرضني ناظر المدرسة يومًا على الأخصائي الاجتماعي.. رجلٌ أربعيني مكفهر الوجه فقير الملابس يعاني من كل شيء في حياته، حجرة مكتبه ليست سوى مكان ضيق بلا لون محدد. يجلس أمام مكتب صغير من الصفيح، خلفه شباك ضيق يطل على جدار، وعلى مكتبه مروحة تظن أن الأزيز هو الهواء. كان أبطأ إنسان في الوجود، حركته

وكلامه وانفعالاته معدومة. أجلسني أمامه وسألني بإعياء عن اسمي وفصلي وعمل والدي، كان موفدًا من المدينة فلم يكن يعرف أبي. حدثني كثيرًا وجمع الكثير من الأجوبة ثم أدركه الملل، مجرد أسماء وأوراق وجمع إجابات. لو أصرّ قليلًا لحكيت له كل التفاصيل، رجوت أن أجد لديه الكثير من التفاسير وإجابات لمئات الأسئلة، لكنه لم يكن مُصرًا إلا على الفراغ من مهمته على الورق. قال إن هذا العالم مليء بالاضطراب والمشاكل وإن الحلول كلها جزئية قد تنجح في رأب الصدع في جهة، لكنها تؤدي إلى توسعة الفتق في جهة أخرى، نصحني في النهاية باعتزال الناس. لم يكن هذا التحقيق ليقدّم أو يؤخر في سير الأحداث. أذكر قميصه المبلل بالعرق ولهجته الخاملة. طلب استدعاء ولي الأمر؛ لامه الناظر حين عرف المصيبة. أخبره أن أمي أكبر من أن تُستدعى بهذه الطريقة ولهذا الأمر، أمره أن ينسى الأمر ويحفظ الأوراق، أظنه رحب بذلك جدًّا...

كل الحكايات غائرة في قاع الماضي، ليست سوى صور أجمعها من شاطئ النسيان. يحاول كفي مستميتًا أن يضع كل شيء أمامك، لعل ذلك يمنحني الخلاص ويسمح بالقربى. أحاول رفع السدود بيني وبينك، كلما اقتربت منك أشعر بقسوة لاهبة. لمَ لا تكشف عن وجه آخر أشدّ لينًا؟ لا أصدق أنك جهم هكذا بعد أن وصلنا هنا. لم تكن كذلك منذ قليل، شعرت

أنك كنت تبحث عني مثلما كنت أبحث عنك، تلقفتني عيناك في مودة في ذلك المقهى، ثم أنت الآن قابع في ذاتك البعيدة كمجوسي غامض كفر بالنار، أو عابد صنم أوشك أن يلقي أيقونة معبوده في اللظى، كنت حريصًا ألا نتكلم أمامهم؟ لا عليك، أفهم هذا، مررت به كثيرًا. سأعترف لك الليلة بجرائم لم يستدل عليها أحد، البوح هذه الليلة ضرورة، لك نفس العيون التي كنت أرجو يومًا أن أمنحها اعترافي، ذلك الخرافي الذي بجّلته ثم حالت بيننا الخلافات والأفكار وغرور المكانة والرصاص. من قال إن خلاف الفكر لا يفسد للود قضية؟ إنه يُفسده ويبول فوقه ويتغوط...

الوحدة والثراء الفاحش والإرث الكبير، كلما كنتَ موسرًا كانت أخطاؤك أكثر قبولًا وكثر مبرروها. سمحت الأم بتعداد التجارب؛ ربما لتعدل كفة ميزان اللوم. كانت تتغافل راضية عن خلواتي. أدَّبت كل من حاول إهانتي ولو بنظرة؛ في زمرتنا رجال ومعارف يفعلون أي شيء لإرضاء الأرملة الغنية، الأقاربُ الذين كرهوا طيشها في البداية، عادوا بسهولة ليكونوا طوع إشارتها.

*****

8

حادثة مفجعة رَجَّتْ قريتنا، تفاصيلها كافية لإعادة النظر في كل مفاهيم العدل في الحياة. من الذي يفوز في النهاية؟ وما هي النهاية؟ وما هو الفوز؟ ما الحكمة المستخلصة؟ ليس للحقيقة وجه ثابت، لكل موقف حقيقته وفضيلته ونجاحه، ربما كان النجاح أن تكون خائنًا. كل من مررت بهم من أنذال يستمتعون بحيواتهم ونذالتهم، والأنقياء يفنون دون أن يعبأ الزمان بهم، يسطر الأنذال الحكاية في شكل جديد، مع الوقت يختفي معاصرو الحكاية الأصلية ويبقى المكتوب؛ يصبح ما تعرفه الأجيال. لذلك كان عليَّ أن أجلس على كرسي الرب أحيانًا لضبط الموازين ...

كنت في الثالثة عشر من عمري عندما فُجعت البلدة بفاجعة الحَدَّاد، كما أُطلق عليها بعد ذلك...

عَذَّبَ جارٌ لنا زوجته ليلة كاملة. كان اسمه أشرف. حداد يرى مهنته وصوته الجاف أهم علامات الفحولة، معروفًا بقلة كلامه واعتداده الشديد بشاربه، كث الشارب عريض الجبهة قصير مفتول العضل. بلغته أقاويل إن زوجته تخونه، راجع الأحداث فاغتصبه الشكُّ، أراد أن يستوثق

باستنطاقها. ربطها بالسرير، حمّى سكينًا بالنار، أشعل عشرات السجائر، أخذ يحرقها طوال الليل، كَمَّمَ فمَها حتى لا يسمع أطفالها الثلاثة صراخها. لم يسمح للموت ولا للإغماء أن يصلاها، اعترفت في النهاية بعلاقتها بصديقه. أخبار الوشاة صادقة إذن! يأتيها عندما يذهب هو إلى عمله. أرغمها على ذكر التفاصيل كلها. ربما ظنت أن الصدق منجاة لها. كان العذاب فوق الاحتمال، جديدًا في كل لحظة وبلا نهاية. كلما أنهكه الضرب، أشعل سيجارة جديدة وسكن يشربها ثم أطفأها في مكان مختلف من جسدها. قتلها في النهاية ثم دخل على أطفاله النائمين، قرر قتلهم؛ إن لم يكن شكًا في بنوتهم فدرءًا لعار المستقبل. انتقل بهدوء إلى غرف الصغار، استبدل بالسكين ساطورًا. في منطقة ما من ذهنه، كان يعتقد أنه يعمل ما فيه صالحهم. ذبحهم تباعًا، كانت تلك رغبته الشاملة. بدأ بالأكبر، كان دون التاسعة، وضع نصل الساطور على طرف رقبته الأيمن فاجتزها بحسم، كان حريصًا على ألا يستيقظ، لكنه انتفض، أمسك الصغير عنقه وأخذ يلهث والدماء تنفجر؛ اشتد عزم الأب على إنهاء عذابه فاجتزّ الرقبة، كان لا بد في هذه الحالة من تطويح يده بالنصل الكبير ثم العودة بأقصى سرعة جهة الرقبة، مات الصغير لكن الرقبة لم تُستأصل تمامًا، ظلّت معلّقة برباط عظمي واهن، ملقاة للخلف. اتجه بعد ذلك للصغيرين الآخرين، في نفس

الوقت الذي كان فيه المواطنون الفضلاء من أهل النجع آوين إلى مضاجعهم في بيوتهم مستسلمين لرتابة حياتهم، وكان الرب في عليائه شاهدًا على كل ما يحدث. أتعرف أن هناك من يعذرون فعلة أشرف بداعي الشرف؟ أنا دائمًا أعذر الرغبة العارمة، لكني أكره العناوين الكبيرة حين تغطي أحداثًا حقيرة. يقينًا كان يحبهم، أخبر القاضي أنه رحمهم. مات الأوسط بشكل أسرع، استفاد الأب من تجربتيه السابقتين، لكن أصغرهم ذا الأربعة أعوام استيقظ فور دخول الأب حجرته، ارتعب من نظرة عينيه والدماء التي تملأ ملابسه وتسيل من السكين، فرَّ منه، رفع الغطاء وجرى نحو الباب ومنه إلى حجرة الأم، وجدها مختفية الملامح بين دمائها الثخينة، وكانت جاحظة العينين، بقاياها مربوطة في السرير. عَدَا الأب خلفه والساطور في يده، أظُنُ أن الصغير وهو يعدو كان يبحث عنه هو، عن أبيه، الذي كان خلفه بالسكين، أدركه الأب وجَزَّ رقبته. قال إنه تعمد أن يكون الأمر سريعًا وحاسمًا أكثر، لأنه كان يحبه أكثر.

جلس منتظرًا حتى الصباح، بجوار الجثامين الأربعة، دخن الكثير من السجائر. لم تستغرقه أية فكرة، أخرج مشاعره من قلبه، قرر أن يؤجل كل إحساس حتى يأتي صاحبه، لم يسمح للساعات التالية أن تستذله، نفى قلبه بعيدًا، ربما في جزيرة سيلان مع عرابي، كان كث الشارب أيضًا. أرى في

عينيك ذلك البريق الذي يملأ عشاق التاريخ، تُذكّرني برجل كبير الأثر كان يصنع التاريخ صنعًا، سأقصّ عليك أمره بعد قليل، دعنا الآن نكمل ملهاة أشرف...

استدعى صديقه فجاء في الصباح. بعد ثلاث ساعات من قتل الطفل الأخير. كان يعرف هذا الصديق منذ خمسة أعوام فقط، زير نساء، كثيرًا ما شاركه معاشرة الساقطات، وكثيرًا ما كانا يتشاركان بضع واحد. كان أشرف يقصُّ على زوجته القتيلة جسارة صديقه ومجونه، لم تستعصِ عليه امرأة. ولم يكن يعرف أن صديقه أيضًا قصَّ عليها، أثناء إغوائها، أنهما يتقاسمان النساء، أنبأها قصصًا كثيرة. كان صديقه ذاك وسيمًا خسيسًا تنهار كبرياؤه أمام أي حِر. تطورت الصداقة إلى ولائم وسهر، ثم طالب زوجته أن تغسل ملابسه؛ كان ممن يعدُّون الشهامة أن يستعمل الصديق خدمات الزوجة في الطبخ والتنظيف والغسيل. كثيرًا ما وجدت بقايا الليالي الحمراء عالقة بلباسه. تطلَّب الأمر أن يذهب الصديق لاستلام ملابسه أثناء عمل الزوج.. ولم يكن أشرف يظن أن تتطلع زوجته لغير رضاه، أو أن يتجرأ هذا الصديق على شاربه وحرمه...

فُتِحَ الباب فأحسّ بكل شيء؛ للعذاب رائحة. من المستحيل أن يقتل المرء أبناءه وزوجه ثم يظن أن ابتسامة مدّعاة ستخفي كل شيء، ولا بد أن هذا الصديق كان مرتابًا طوال الطريق. ردّ الباب من الخارج وانطلق يعدو، جرى أشرف خلفه رافعًا النصل بيده، خرجت روحه عن كل سيطرة. لن أقول إنه كان يصرخ كالمجنون، لأنه كان الجنون نفسه، ذلك الجنون أعطاه الخفة الكافية لإدراك الشاب. لا بد أنه كان مشهدًا مضحكًا جدًّا، رجل يصرخ وهو يعدو خلف رجل يصرخ أيضًا، لا بد أيضًا أن الخيانة نفسها كانت تضحك من فداحة نتائجها. أحدهم تبرع بإنقاذ الموقف بأن ألقى نفسه فوق أشرف من الخلف، صرخ أشرف صراخًا عجيبًا أشبه بالنعيق والخوار، ثم تتابع الرجال عليه فشلُّوا حركته. ندم الذي أنقذ الشاب على إنقاذه حين عرف القصة كاملة.

كلما تذكرت ذلك ذُهلت من عبث التاريخ؛ لا يعبأ بشيء، لا عاطفة. أهذا سرُّ قوته؟ لم تكن هذه المخلوقات تافهة بلا قيمة كتلك التي تعلّل بقتلها راسكولنيكوف، إنهم قلب القاتل نفسه، أبناؤه يا أخي... طلب من القاضي أن يسرع بتنفيذ الإعدام. قالوا إنه احتفظ بملامح ثابتة، لم يهتز في بدء التحقيقات، استطاع أن يجعل قلبه خارج كل شيء، وكان الوقت عدوه الأكبر. أخذت روحه تنشطر شيئًا فشيئًا، صرير قلم كاتب التحقيقات بدأ

يزعجه، أصبح رأسه كالمدخنة، مرتعًا لآلاف الجرذان السود يفرُّون في كل اتجاه، دقات الساعة وصوت المحقق ونظراته، أزيز الباب، الحسنة البنية بجوار أنف المحقق. بمرور الوقت يتذكر تفاصيل تبعث على الجنون، صخب الأطفال في البيت وحضن الصغير، نظرته الأخيرة حين استدار سائلًا بعينيه عمَّا حدث لأمه، استرحام عيني زوجته وتوسلاتها، فرار الشريك الأساسي في الخيانة يقتله كمدًا. يمكنني أن أضع قسوة كل ما فعله في كفة، وقسوة لحظة تمثيله للجريمة في كفة. انتابته نوبات صراخ متتالية، العذاب الذي ألقمهم إياه دفعة واحدة عاد إليه حارقًا.. قطرةً قطرة. الأعصاب التي لم تجفل ولم تنِ خلف خطوات الصغير، توشك أن تتناثر أمام أقل هفوة. نظرات دهشتهم تطارده. صار قطعة متأججة من النار يحيطها جسد يتحرك...

في النهاية أُعدِمَ الأبُ، ومن الذي نجا. الصديقُ الخائن. قطعت هذه النهايات ثقتي في كل النهايات بعد ذلك، الودعاء الطيبون لا يرثون الأرض في نهاية المدى. أفتى شيخ القرية أن هؤلاء الأطفال الثلاثة سيكونون غلمانًا طوافين على الأتقياء في الجنة "بأكواب وأباريق وكأس من معين"[1]. أظن أن الشيخ كان يبحث عن مهرب لتعليل وهن عدالة الإله، وأظن أن الرب

---

1 "سورة الواقعة آية رقم 18

لن يجرؤ على بعث هؤلاء الأطفال يوم القيامة؛ سيسألونه أسئلة ليس لديه أجوبة لها.

هذه كانت البداية الحقيقية لرؤيتي للتاريخ ومعايير البطولة. منحني عبث الأقدار يقينًا بصدق اتجاهي؛ يفوز الوضيع في النهاية. لعل الصديق الخائن عاش حياة مثالية بعد أن هجر القرية، ربما تمتع بزوجة صالحة وأبناء وسماء مثله، ربما لم يعد يذكر أشرف أو أنه يذكر خيانته وعلى شفتيه ابتسامةُ الظافرين. ما ظنك لو روى هذا الصديق ذلك الحدث التاريخي؟ ألن يمنح نفسه بطولة مثالية؟ لو كان هتلر انتصر، لأصبح البطل المتوج الذي أنقذ العالم. هذا اليابان المجيد قتل عشرين مليونًا من الصينيين، أقام جنوده سوقًا للمتعة، جلبوا إليه جميلات الصين أسرى لإمتاع الجنود، الوطء حتى الممات، الموت لمن تذمرت، الموت لمن أنهكها الوطء، الموت لمن سمنت ومن حملت جنينًا. التاريخ، هذه الكتابات ليست إلا حفنة من أكاذيب. لقد بصق الناس على عرابي وأسموه الخائن حين عاد من منفاه، أتعرف أن شقيق سعد زغلول هو من صاغ حيثيات الحكم على الفلاحين بالشنق في دنشواي؟ وأن جرائد ليبيا نشرت بهجة القبض على عمر المختار "المجرم"، ووقف أهل مصر يشاهدون سليمان الحلبي وهو يتوسط الخازوق ببطء رغم أنه قتل غازيهم. لقد شوّه العباسيون التاريخ الأموي بعد أن "أصبح الملك ثابت

الأساس، بالبهاليل من بني عباس"[1]، أبادوا الأمويين عن بكرة أبيهم واستأصلوا شأفتهم؛ الحجاج يقطع الرؤوس والأصابع، هو الذي كان منذ قليل فاتح البلاد ووائد الفتن ورافع المحن ومنقذ العباد من توهة الحروف حين أوصى باختراع النقاط عند تكاثر الأخلاط، ذلك عندما كان يروي التاريخ الأمويون أنفسهم. لعل هذا الصديق يروي الآن قصة حب أنهاها الحدَّاد بمأساة ولم يتقبل العشق النبيل، وأنه إنما جاء لينقذ الأطفال لكن الأوان فات. قررت أن أكون ما أريد، سأصنع واقعي وتاريخي. أتعرف أن باعةً جائلين كانوا يبيعون المومياوات والآثار لجنود الحملة الفرنسية؟ تاريخٌ بقرش. لن أسمح لهؤلاء الذين استباحوا لأنفسهم جَبَّ الرجال وسبي النساء حين دانَ لهم الملك أن يُعَنونُوني ثم يسجنونني في عنوان، العنوان هو المبرر اللا أخلاقي لقتل الروح المتفردة. أتعرف أن الأمريكيين أطلقوا لقب المتوحشين على الهنود الحمر ليبرروا سفك أرواح مئات الآلاف وسلب أوطانهم؟ أنا الروح التي انطلقت من قيود ظاهرها وخلّصت نفسها من هذا الجسد السجن وهم المأسورون في قوانينهم، أنا الطفل الذي رأى أمه مسجاة تسبح في الدماء فظن أن الأمر كله ربما يكون حلمًا وأنه لم يستيقظ من نومه بعد. لم أسمح لهم أن يقتلوني نائمًا غافلًا عما يُحاك في عالم الأيقاظ.

1" سديف" شاعر عباسي

أنا الزوجة التي أرغمها العذاب على إفشاء السر، هي لم تحبه بالتأكيد، كانت تشم رائحة الساقطات، شاربه الكث العريض كان ليحول بينه وبين منحها حرية الطلاق. فليذهب أشرف وزوجته وصديقه الخائن وأطفاله إلى الجحيم، لست أقصّ عليك قصتهم تعاطفًا معهم، لكن لأعلمك أنني قررت شيئين حينها، أن أكون كما أشاء؛ أنا في النهاية ما انتويت وما أردت وما فعلت.. والبطش بالأنذال، البطش بالأنذال متعة لا يضاهيها شيء، الحسرة الحقيقية هي أن يضيع الناس هباءً. في بغدادَ، مقر الخلافة، خلع الأمين ولاية العهد عن أخيه المأمون، فأخذ المأمون البيعة لنفسه من الناس في خراسان وعاد ليحاصر أخاه ثم قتله بعد حرب شرسة، أنا روح ذلك الجندي الذي مات هباءً في حرب بين أخوين على السلطان، أنا تلك الدهشة التي علت وجه هولاكو حين سلمه الخليفة المستعصم كنوز الخلافة العباسية طوال خمسة قرون بعد أن سَرَّح جيشه. طاف الجيش العباسي يتوسّل الناس الطعام في طرقات بغداد. قال له هولاكو حين رأى الكنوز وأواني الذهب وقضبان الزمرد ونفائس الجوهر والياقوت: "كيف لم تمتلك العالم ولديك كل هذا؟ لو أنفقت هذا على جيشك لمنعوك". وجدوا لديه مئات الجواري، لم يبكِ المستعصم بغدادَ ولا الخلافة وإنما بكى جواريه:

"أُمنُن عليَّ يا مولاي بحريمي اللائي لم يطَّلع عليهن أحد ولم تَرَاهُنَّ الشمس"...

اتفووو... أهكذا؟ هكذاً؟ لم يطَّلع عليهن أحد.. أهذا ممكن؟ أنارجيلة هن يجدها وقتما يريد؟ أهكذا تحرم الناس من الحياة لمجرد أنك ملك؟ أتَجُبُّون الرجال لئلا يطمعوا في حريمكم اللاتي لن تكفيكم أعوام ولا أبدان للمرور عليهن؟ كيف كان عليهن أن يعاملن حرَّ قلوبهن؟ وماذا يفعل المجبوب إذا اشتهى؟ أي عذاب! ما أسعدني بالطريقة التي قُتل بها ذلك المستعصم، تعرف كيف قتله؟ لم يشأ أن يريق دمه، وضعه في زكيبة من خيش وربط عنقها فوق رأسه ثم أمر الناس أن يضربوه بالأكف والنعال حتى مات، ظنوه في الشوال يرقص وهو يحاول دفع الضرب.. أين العهر؟ هل عرفته؟ سامحني فقد علا صوتي.

*****

ما رأيك لو منحتني الفرصة كي أصمت قليلًا؟ الصمت يبحث عن مكان في زحام الاعتراف. الأحداث تتزاكم في عقلي، أريد أن أخضعها للترتيب، لكنها متراكمة. تفكيكها جزءًا جزءًا جد عسير، لكنه ضروري في هذه الليلة بقدر ما هو ممتع. للتاريخ غموض لا ينبغي محاولة نبشِ وجهِه، نبَشَ وجهَه أوديب فكان في ذلك ضياعه. في هذه الليلة التي توحي

مؤشراتها بليلة تاريخية. أنت لست شخصًا عاديًا، ألمس فيك شيئًا لم أستطع تبين كنهه حتى الآن، لكنه مميّز، قلبي وجل، لست أريد إفساد البهجة أو تضييع الهدف الأساسي، لكنني أيضًا، أجد متعة جارفة في البوح والاعتراف. يهدر البحر أحيانًا لكنه كثيرًا ما يحلو له أن يسير الهوينى. سوف يحلو لنا النزق إن قصصت عليك كل شيء هذه الليلة. أتظنني أخطو نحو فقأ عينيّ كأوديب؟ أُتراها نفس الطاقة التي اندفع بها؟ أتسمع مزحة عن أبي نواس المغرم بالأدبار؟ كانوا في رحلة فأخفوا عنه صديقه "أبي طوق" في مكان أعلى عند النوم خشية أن يطأه. استيقظ الرجل ليجد أبا نواس ناشرًا أيره يَهِمّ به، فلمّا لاموه قال:

"هزَّني الشوق، لأبي طوق، فتدحرجت من تحت لفوق.".

*****

عاود الخُطُ الظهور ليحطَ من شأن الرجال والبلد، ولينثرَ الكمد القديم على المدرس أيضًا. ربض على حدود القرية، حاصر الشمس والظلام والأمل، طالب بالعرائس في ليالي العرس. كانوا غافلين في سكرة السلطة فأيقظهم على كابوس وجوده، لم يسمح لهم أن يتناسوه. مواجهة أخرى أشد إخفاقًا للزمرة والمدرس. مرة أخرى، النبابيت وتفاهة الصياح أمام البأس والتجهيزات بكل أنواع البطش. عاد الخُطُ من هذه المواجهة بعشرين فتاة

ومئتي أسير. أعادهم مرة أخرى إلى قريتنا منتوفي الشوارب والحواجب مرتدين أثواب النساء، وشمَ بعضهم بالسكين على سبيل التسلية، حكم عليهم أن يعودوا سيرًا وهم حفاة مقيدو الأيدي، لَعَقوا الصخر حين جفّت حلوقهم من ظمأ الطريق، أكلوا أوراق الشجر إسكاتًا لعواء بطونهم. حكم على من أراد منهم أن يركب حمارًا، شريطة أن يكون موليًا ظهره لوجه الحمار، أن يُبادله أهله ببطيخة عند حدود القرية. أرسل مع الرجال رسالة واضحة، إما البِرطيل وإما أن يعاود، كان مشهدهم مُبكيًا لكل أهل القرية وقد تشققت جلودهم وملأتها القروح. خزيت أعينهم عن مواجهة الناس، بات بعضهم على أطراف القرية حتى يتسلل في جوف الليل إلى داره. امتلأت القرية بالسكون والحزن. الوحيد الذي لم يشفق عليهم كان شيخ المسجد، قديس القرية، قال "إن من يزرع الحصرم لا يجنِ العنب" .

ثار المدرس زائفًا، لم تعد كلماته قادرة على إخفاء خيباته. أصبح ممصوص الوجه هزيلًا بلا بريق، لم يعد قادرًا على التلويح بكفه الكبير الذي لم يعد أيضًا مؤثرًا. مرّ الوقت فاترًا في البيت، أبدت أمي اشمئزازًا وسخطًا، لم يستطع أن يواجه عينيها. تقدم عم فخري نحوه بكوب عصير ليمون مسموم فقضى عليه.

*****

لطالما كنت أتخيل فتاةً وفتى في عصر ذلك المستعصم، جارية وعبد أرسلا طيفي روحيهما حائرين في الزمان باحثين عن فرصة لقاء، زاراني في الحلم كثيرًا. أسميتها "شيرين" وأسميته "كمار"، اسمان أعجميان، أما كمار فقد تم أسره حين كان في الثالثة عشرة، ضربوه فور الوصول دون أن يعرف جرمه، علقوه من قدميه مقلوبًا عندما وصل، باعدوا ما بين قدميه وسَلُّوا خصيتيه بحبل معقود. سببت جذبة طرفي الحبل له ألمًا أهون منه الموت. العجيب أن القائمين بتعذيبه كانوا عبيدًا مثله، عانوا ما عاناه في أعمار مختلفة، رغم ذلك كانوا يؤدون المهمة بإتقان وحماسة شديدين. الحاجة للخصيان هيّنة كشأنهم، يحتاج القصر لخادم يجلب الماء ويحمل الطعام من المطبخ إلى حيث يأكل العبيد والجواري، تحميم رجال القصر وتوضيب الأسِرَّة، كما يمكن الاستعاضة عنهم بسهولة أو قتلهم من دون أي تداعيات، بلا دية ولا تجريم، هذا قانون الخصيان.

وأما شيرين، فقد سُبيت بعد حرب لا تعلم أسبابها لذلك المستعصم. كانت في العاشرة، تسلمتها الجواري وبشّرنها أنها ستكون في حريم السلطان. لم تفهم المعنى، لكنها استبشرت بعدم القتل، لم تتوقف رجفتها من هول ما رأت من رعب. كان جمالها باهرًا، شعرها مسدل كالحرير وبياضها مشوب بحمرة وشفتاها تسطعان كالكرز على وجهٍ رائق القسمات.

أحاطت بها الجواري، أحممنها وغسّلنها بالطيب وألبسنها الحرير، كانت جائعة حائرة لا تفهم اللغة التي يتحدثن بها، كان كل ما يشغل ذهنها هو بيتها الذي احترق، أمها التي صرخت حتى سقطت ميتة.

بقيَتْ في القصر بين الحريم، حذرنها من كثرة النحيب، السلطان يكره الناحبات. الحديث عن وطنها ممنوع، تُجلد خمسون جلدة من ينتابها الحنين إلى ديارها، علمنّها فنون التبرج والدلال، دهشت من تفاهتهن.. أجساد بلا أرواح. طلبها السلطان، أدخلنها مخدعه. الملك المتوج يعشق الأبكار، متعته أن يستشعر ذلك الصوت الخافت والتأوه الأثير عند فض الغشاء، ترطيب أيره بحِرٍ طازج. زَعَمَ له مفتو قصره، والثريد يتسقّط من أفواههم على مائدته العامرة والمدينة قاحلة، أن دينه يسمح له بثقب الصبايا لمجرد أنه انتصر في الحرب فسباهن. انضمت إلى مقتنيات السلطان بعد أن قضى منها حاجته. عادت إلى الجواري، استمتعت بمعاملة أرقى منذ اعتلاها، قلّت التبعات واختصتها جوار جديدات بالخدمة. لم تطّلع عليها الشمس، لم تخطُ عتبة الحرملك ولم يجرؤ أن يمسسها أحدٌ بعده؛ مجرد اطلاع عين ذكر غريب على حريم السلطان يوجب سمل هاتين العينين، جلّ ما أصبح مطلوبًا منها أن تنتظر أن يعاودها السلطانُ مرة أخرى.

*****

تتلفت الفتاة الجميلة شيرين ويتلفت الفتى الأشقر كمار، يغضان الطرف حين يلتقيان، تلتقي عيناهما خلسة حتى لا يلمحهما خدم القصر وبصاصوه فيخبرون السلطان. تبادلا نظرة يوم عُرضا على النخاس في العرض السنوي لعبيد القصر لتصفيتهم وتجديدهم. وثّق بينهما المصير بلا سابق معرفة. صارت شيرين كفلقة قمر، ممشوقة القد لا تخطئها العيون، ينز من حولها عسل الأنوثة، رقيقة العنق ملفوفة القوام، ما لبست ثوبًا إلا انسدل فاتنًا على جسدها الريان، ما رأتها عين إلا عشقتها، رموشها الكحيلة النادرة حول عينين مسحوبتين رائقتا الحور، شفتاها زِقُ عسل، روحها التي لم تستطع الأحزان هزيمتها، رفقها بالجواري الجدد، سُمُّوها الفطري كأنها وُلدت أميرة. الجواري كن يخفينها عن عيون بصاصي السلطان حين يصطّففن لاختيار الخدينة، يعرفن أنها أنثى بلا منافس. ساعدتهن بغير أن يدرين لأنها كرهت لقاءه، أتاها صبية بغير رضاها ثم حبسها بين حريمه منتظرة مجد أن يغتصبها مرة أخرى، عاودها مرات معدودات ثم نسيها بأخريات. تعمدت أن تفشل في كل دروس خضوع الروح. كم حاولت الجواري تعليمها طرق إمتاع السلطان، تدليك السلطان، حفظ الأشعار والنوادر والمُلح وعلوم الأنساب للتسرية عن السلطان. وللسلطان إذا شاء وطأهن ووهبهن وبيعهن في سوق النخاسة، أو أمرهن بلعق أصابعه وباطن

قدمه لجلب القشعريرة، والمجد لمن قشعرت السلطان.

واستوى كمار فتى تُسعد العين رؤيته، لكن روحه شديدة الخجل والفرار، يئد في نفسه انكسارًا دائمًا.. لم يكن بينهما سوى نظرات خلال سنوات، يتبادلانها عند الأعمال التي لا بد أن يوجد فيها العبيد والإماء. عشِقَ الرسم، لكنه لم يجد ما يرسم به، حاول أن يرسم وجه شيرين بفرشاة صنعها من ذيل الخيول على قطعة قماش قطعها من سرج حصان.

بلغت السادسة عشرة، وناهز هو العشرين. تأقلما مع الذل والخنوع، اعتادا العبودية ونسيا أحلام الشباب. لكن شوقًا ملتهبًا أججته النظرات المتبادَلة في لحظات اللقيا القليلة خلال سبع سنوات، عند أزيار المياه وملء قدور الطعام. تذكر هي هذه اللمسة بالليلة الوحيدة التي نامت فيها سعيدة، ويذكرها هو بالليلة التي لم يغمض له فيها جفن؛ حتى لقد أشفق عليه فرسٌ فهدهده برأسه.

كانت عينا كمار هي الأسرع هربًا، ليست لديه أحلام لها، لا يملك أسباب النوال، عيناه مطفئتان من ذل قبضة الحبال، نظرة كسيرة في عيون كل المجبوبين، ينتجها الخوف من قرب الوصول وقلة الزاد. أما عينا شيرين، فكان اليأس فيهما ينتهي ويبرق الأمل حين تراه. الروح هي الظمأى وليس الجسد، يكفيها أمان القرب من شخص شاركها نفس

الاغتراب ونفس العذاب، يدرك من غير كلام ما يحويه الصمت وتخفيه النفس، يعرف قيمة مأوى القلب وسُكنى الروح، يلمع الشوق وتسطع أسنان باسمة خافتة الضحكة خلف شفتي الكرز. لمحته إحدى الجواري يمس إبهام شيرين بسبابته في لحظة تسليم الطعام، أغمض عينيه لثانية غير عابئ بالحذر الواجب، أفشت الجارية السر لمؤيد الدين بن العلقمي "الأَمَةُ التي استعصت عليك لانت لعبد".

ترأّف به الوزير، أستاذ الدار، ذلك منصب اخترعه العباسيون لإدارة القصور، اكتفى بجلده مائة جلدة وأن يُحبس في مأوى الدواب إلى الأبد. حُبس في "الزريبة"، لا يرافقه إلا إحساسه الأخير بلمس إبهام شيرين يسري كالندى في أعضائه وروحه بين رطب الروث وجافّه. أبقى الوزير الذي شقت يداه طريقًا في ردف كل جارية، واستطاعت أن تميز تقبب كل مؤخرة في القصر إلّاها، على حياته. ترفّق في العقاب آملًا أن تلين قناة شيرين فتسمح له برشفة من عسلها. رفضت فجدع أنف كمار وقطع سبابته.

وانتهى الأمل واليأس معًا حين انتصر هولاكو على المستعصم. كان المغول إذا دخلوا قرية دمروها وقتلوا من فيها وأحرقوها. استقر رمحٌ في صدر كمار حين حاول إنقاذ الجياد من الحريق. قرر هولاكو، بعد أن قتل

جنوده مليون وثمانمئة ألف مسلم، أن يستذل المستعصم بأن يطأ جنوده أجمل الحريم وأشهاهن أمامه. كانت شيرين ضمن خمسين فتاة تم اصطفاؤهن. دلّهم عليهن الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، ممالئ المغول ومُكاتبهم ابتداء لغزو بغداد، تمامًا كما دلَّهم من قبل على خبايا المداخل والمخارج في بغداد، ثم عمل جاهدًا على تثبيط المستعصم وتخذيل الجند في مواجهة المغول. ستكتشف لاحقًا أن عم فخري صار رجل الخط بنفس الطريقة.. أثبت التاريخ نجاحها دائمًا.

تشفَّت نفس الوزير برؤية شيرين ممزقة بين أفواه الجنود. أُخذِت بعد ذلك ليقتسمها الغيلان. في القصر، اغتصبها سبعة جنود غلاظ جوعى ليلة القبض عليها. خرج جنود المغول من بغداد خوفًا من الطاعون نتيجة كثرة الجثامين المتناثرة في كل مكان، أحرقوا الجثامين واصطحبوا النساء والجواري وضمنهن شيرين. كانت تنتظر أن ترى عيني كمار قبل الرحيل، لم تكن تعلم بموته.. في الطريق، اغتصبها عشرون جنديًّا. فاضت من عينيها كل الدموع التي خلقها الله في الأرض فملأت دجلة والفرات إلى يومنا هذا. أنهكها الاغتصاب المتتالي قبل أن تصل إلى ممالك المغول. اغتصبها الغول وقتلها المغول، ماتت بغير أن تعرف الحياة وبغير أن ترى كمار...

عندما أُرسِلَت روحها في حياتي صارت مدرسة تدبير منزلي اسمها آمال ...

9

منحتني دفئًا لم أكن أجده في حضن أمي، ثم منحتني حزنًا بقي في نفسي طوال العمر...

ماذا رأت فيّ "الأستاذة آمال" مدرسة التدبير المنزلي؟ علمَتني الطبخ، أتقنتَه فأدهشتها. كنت أميلُ ميلًا طبيعيًا إلى الطبخ والتطريز. علمتني الاقتصاد المنزلي وأعمال الكانافاه. أنا الوحيد الذي سمحت له بمساعدتها في تنسيق حديقة المدرسة التي كانت تتعهدها. جنتها الصغيرة المليئة بأنواع وألوان نادرة من الزهور والنباتات. علمتني حب الحياة والعيش كما أريد، لا كما يريد أحد، طالبتني أن أنطلق وألا أسمح لقيد أن يربطني. كانت دافئة، أرسلتها الأقدار في الوقت المناسب. سدّت فراغ أبي بامتلاء أروع. استجابت الجنية لأمنيتي؟ كانت رغم ذلك تغلظ على نفسها بوحدة مريرة قاسية، تجلس في حجرتها بالساعات دون أن يرمش جفناها متأملة تلك اللوحة المعلقة بذلك "الجنش" الحديدي الغليظ المثبت فوق شباك مطل على فناء المدرسة، صورة زيتية فقيرة لجياد ساكنة في أرض قفر، مقيدة بسلاسل وعيونها بلا أمل. كانت نموذجًا حيًّا للعيش بلا أدنى رغبة

وبلا أدنى انتباه. تجلس في حديقة المدرسة بالساعات بعد انتهاء الحصص، لا تقبل حتى أن يساعدها عم عبده. بقيت معها يومًا حتى الخامسة مساءً، شعرت أنها كانت تتعمد عدم الانتهاء من رص الأصص.. انتهى اليوم بمشكلة.

كثيرًا ما رأيت عم عبده يحمل إليها بعض سندوتشات من الكانتين راجيًا إياها أن تأكل، لكنها لم تطعه مرة واحدة ولم يكن ييأس رغم ذلك.

- يا بنتي عيشي شبابك، الدنيا ماشيه لقدام مش راجعة لورا.

دائمًا كان ردها نفس الرد، نظرة كابية ثم إطراقًا غامضًا.

*****

أدمنت السرقة وأنا الموسر المرفه، خطفت كل ما طالته يداي. أفٍ لهذه العادة القذرة، تشعرني بالخجل حتى وأنا أقصها عليك. هل كانت أصيلة فيّ أم وُلِدت ضمن ما وُلِد معي من مظاهر تستجد في كل مرحلة، كمظاهر تحول الآدمي إلى مستذئب؟ كل ما كان يضيع من التلاميذ كان مقرّه عندي. لم أكن جائعًا حين سرقت أطعِمَتهم، ولم تكن مساطرهم وأدواتهم الفقيرة تلك تروق لي حين كنت أتسلل بين الحصص أو أثناء الطابور لأسرقها؛ كنت أجد لذة في حرمانهم منها، كنت أرميها في الترعة بالطريق. كلما ضاع في الفصل شيء حامت الشبهات حول التلاميذ الفقراء غالبًا؛ إذا كنت فقيرًا

فأنت لص. كنت أشاهدهم يوميًا يفتشون عامر. كلما فتشوه نظر إليَّ تلك النظرة الحزينة. الظنون تخشى دائمًا أن تحوم حول أبناء سادات البلد، لم يكن الشك يقربني بتاتًا. كان عامر يعرف، لكنه لم يجرؤ على البوح.

لا أعرف كيف اكتشفت هي السر. فكلّما حار المدرسون والمشرفون وأسقط في أيديهم، سددت لي مدرسة التدبير تلك النظرة التي تعريني وتكشفني، لكنها لم تكن تحتوي الغضب، بل مكرًا باسمًا، كانت في الصمت الحاني بيننا تقول لي، "أعرف أنك الفاعل، ولكن لا عليك، ردَّها سرًا كما سرقتها،". "ليس مفترضًا أن تكون كاملًا، ما أسهل أن تعيد المسطرة والأقلام، أما أحلامك، فلو سرقوها منك، فلن تستردها أبدًا.".حضن دافئ وكلمات بسيطة يلين بعدها جُرمِي،

ما زلت أشعر بدفء هذا الحضن، كان واسعًا طيبًا، يعبق بالحنان، أغمضُ عيني فأشمّه وأستشعره حتى الآن...

لأمرٍ ما، كانت أمي تكرهها. كانت تزور المدرسة وتتحدث إلى جميع المدرسين إلا هي. ولم تكن مُعَلمتي تسمح لذلك أن يمس حبها لي، تجاهلتها. كانت قد أقامت حول ذاتها جدارًا لا يعبأ بالمطارق خارجه. تعمّدت أمي أن تحدثها يومَ تأخرت للخامسة بصوت عالٍ، كان ذلك أمام المدرسين والتلاميذ. وربما كان ذلك لأنني اهتممت في البيت بتربية الزهور

أكثر من الدراسة، لست أذكر السبب على وجه التحديد. كنت أخشى أن تجادلها المُدرسة فتنطق بكلمة لا تروق لأمي، خاصة أن عم فخري كان بجوارها منصتًا إنصاتَ ثعبان خبيث، كدت أتمنى أن تموت أمي. لكن الأستاذة آمال لم تعبأ بكل هذا، تركت العاصفة تمر، ابتسمت في وجه أمي ثم آوت إلى حجرة التدبير المنزلي. دائمًا كان هناك أمر كبير يشغلها عن كل ما في الكون، اتضح أنه كان حزنًا كبيرًا تهون أمامه كل صيحات أولياء الأمور.

المرحلة الإعدادية مدهشة، تدهش مما يحدث بجسدك وتحار من هذه العلامات الجديدة التي تتناثر في خفايا الجسد. تجربة لا تجرؤ أن تسأل عنها من يكبرك ولا تستطيع أن تكاشف بها ذويك. يكتشفون هم كل شيء، يحدثك كل من يلقاك عن التغيّر الذي يشمل كل شيء فيك، تتمنى الخفاء لكن كل شيء يفضحك، حتى المدرسون يسخرون ولا يقدمون تفسيرًا لما يحدث. الأمر كان أشد غموضًا على طالب مثلي ينبذه معظم الزملاء وتتجه نفسه اتجاهًا مغايرًا. لله در هذا الفتى الذي كان يكبرنا بعام ويخدعنا بأعوام، هاهاها، لكم تمنيت أن أقابله مرة أخرى، كان إنصاتنا إليه مقدسًا وهو يحكي لنا أسطورة طرف أذن البنات، قال إنك لو فركتها قليلًا لنامت تحت قدميك مستسلمةً كقطة.

كان مدرس الجغرافيا معروفًا بالصرامة، كلنا كنا نعرف أن أباه حلاق معيز. أراد أن يفرض سطوته منذ اللحظة الأولى، دخل في إحدى الحصص وفاجأنا بتصرف غريب؛ اختار عامر، كنا نظنه انتخبه بشكل عشوائي، سأله سؤالًا في منتهى العُسر، بالطبع لم يكن يعرف الجواب، ليس هناك جواب أصلًا عن مثل هذا السؤال، كيف يعرف عامر "الغلبان" حجم الطاقة الكهربائية المتولدة من ضغط المياه بالسد العالي يوميًا، وهو الذي يعمل في نزح "الطرنشات"؟ لطمه على وجهه بكل قسوة، بُهت التلميذ مرتعبًا.. هل اكتفى المدرس بذلك؟ لا، أخرجه من الديسك ولطمه لطمة أخرى، ثم أخرى ثم أخرى، كان عامر يتراجع للخلف مع كل لطمة والمدرس يتبعه حتى احتجزه قرب الحائط آخر الفصل وعيون عامر تسأله عن السبب، هل يرضي هذا السد العالي كلَ هذا العذاب؟ ليته سألني أنا، ليته ضربني أنا؛ إذن لاشتفيت واشتفت زمرتي، لكنت حققت أمنية عم فخري في اللجوء إليه يومًا، نظرة واحدة للخلف كانت لتلقي رأسه الأجوف القذر هذا بين التراب والصخور. صمتت المدرسة كلها عن هذه اللطمات، لم يعبأ أحد "بالغلبان"، قلت لك إن المدرسين مخلوقات عجيبة، يتحدثون جيدًا عن المبادئ.. لا شيء يضحكك. لم يعتذر له المدرس في النهاية كما كان يحدث

من جميع المدرسين، يضربون في أول اليوم ثم يحتضنون المضروب في النهاية، لئلا يخبر عائلته .

وجاءت مُدرسة التدبير في اليوم التالي كالعاصفة، دفعت الباب دفعًا في حصة الجغرافيا، شتمت وسبَّت وأشاحت بيديها، حشرت المدرس في ركن المدافع وأتقنت إهانته.

"ألهذا السبب كنت تسأل عن أصل كل طالب وعمل والده؟ ألهذا اخترت عامر؟".

وقف مخزيًا كالبهتان، تلقى سبابها دون أن يرفع عينيه، قال معللًا خنوعه إنه ساكت بدافع الشهامة، "فلا يجوز أن يهين المرء سيدة"، لكنها صاحت في وجهه بأعلى طبقات صوتها ووجهها يزيد احتقانًا واحمرارًا.

"ولكن يجوز أن تذبح السيدة كل يوم. أن ترغمها على رؤية وجهك القذر. وأن تتجول أنفاسك القذرة في محيط حياتها. أن تحرمها حريتها وأهلها لأنك السلطان. حضرة المدرس، أهكذا أنت باهر القوة في عين نفسك.".

ثم أنهت خطبتها الشامخة التي لم يعد يفهمها أحد بأروع نهاية ممكنة، صفقنا وركلنا الهواء وتبادلنا التهاني. أتدري ماذا فعلت؟ هل تستطيع أن تخمن أين بلغ بها الغضب؟ بصقت في وجهه بصقة هائلة، خرجت من فمها الدقيق دقيقة، لكنها أخذت تنفرد وتكبر في الهواء حتى ظننا أنها احتوت وجهه

كله، جفَّف وجهه بيديه ثم وقف منتظرًا إهانة أخرى، لكنها اكتفت. لاحظت أن عم عبده كان واقفًا خلفها كالأسد العجوز الغاضب ينتظر منه هفوة كي ينهشه.

لكن، رغم كل هذا الفتون الذي ملأتني به إلا أنها ماتت منتحرة، هكذا سيكون الموت في حكاياتي، دائمًا يفاجئني، حتى إن كنت أتوقعه، هل كان الأمل أيضًا وجهًا دعيًا زائفًا يصطنعه اليائسون لمواجهة العالم؟ لست أدري.

في يوم خريفي من شهر سبتمبر والحدائق قد خلت من أوراقها، كنا نسمع كلمة الناظر في فناء المدرسة حين اندفع جسدها السمين فجأة من شباك حجرتها ثم تدلى على الجدار. صرخةٌ مكتومة وصراع بين قلب قطعَ على نفسه نقطة الرجوع وحبل لا يعرف الرحمة. توقف الصوت في المدرسة، غيبوبة غشت عيون الجميع، ثم استفاقت الرؤوس تباعًا للبحث عن تفسير، اهتزت قدماها كثيرًا، وقعت إحدى فردتي حذائها على الأرض. كان مشهدًا مرعبًا. أظن أن المرء في هذه اللحظة يفكر في التراجع، لكنها كانت تهتز وتشد جسدها لأسفل، تتعجل الموت وتشد على قبضته. وهنت المقاومة، انتفض الجسد انتفاضات ساذجة ثم سكن تمامًا ووجهها للحائط، تسمّرت التلاميذ في أماكنهم، جرى بعضهم بغير اتجاه وملأ المكان صراخ

البنات والمدرسات، حتى المدرسون سكنوا وقد أُسقط في أيديهم، لم يتحرك سوى عم عبده، انطلق مسرعًا كأنما يمضي بين أجساد مصلوبة، كل جسد صُلب على ما اتخذه من موقف، فبعضهم صُلب وما زال يصرخ وبعضهم صُلب جريًا أو قاعدًا.

عندما فتح عم عبده الغرفة وجد الحبل الغليظ مثبتًا على "الجنش" الصلب واللوحة السخيفة ملقاة على الأرض، لم تكن تتأمل اللوحة، بل "الجنش".

شرخ فقدانها وطريقة موتها حياتي شرخًا لم يندمل قَط. فقدت الشخص الذي يهتم، لم يكن يحق للحياة أن تُفقدني مثل هذه الإنسانة.. لماذا يموت النبلاء؟ أظنهم لو بقوا، لضمنّا لحظة نور في المستقبل.

*****

تناثرت في الحجرات المغلقة والفناء قصة شقائها. سمعت مفردات عذابها وجمعتها من ألسنة كثيرة، كان حزني عليها كبيرًا، كبيرًا جدًّا، شعرت أن قلبي صغير وجسدي صغير وأنني أحتاج أن أكون عملاقًا لأحتوي حزنًا مناسبًا لهذا الفقد.

بقيت أيامًا أجمع أسباب انتهاء وجودها بهذه الطريقة. عامٌ بالمدرسة لم أبتسم فيه مرة واحدة. قطعت جميع صلاتي بالزهور واللعب، لا أظن أن

قلبي نسيَ للحظة هذه النظرة الممتعضة الأخيرة. لم أحتمل أن تسير الأشياء كما هي، الطوابير والحصص والفسح، هذا فقدان يجدر بالعالم أن يتوقف قليلًا من أجله. كرهتهم حين هدأ الأمر وسمعت كلماتهم الساخرة "كن أنت مُدرسة التدبير"، "ألم تُعلمك الطبخ؟"، كدت أبحث عن بندقية لأقتل كل من في المدرسة. لحظة موتها لم تكن تفارقني، تشنّج قدميها وعذابها الأخير كان قاسيًا، لو استطعت لشددتها لأسفل، ليكونَ الموت أسهل؛ خاصة وقد علمتني أن الموت كالميلاد لا يقبل التأجيل.حتى أمر أشفقت عليها.. ربما من شدة وجدي.. استطاعت إقناعهم بإعطائي اللوحة الزيتية لأحتفظ بها كذكرى.. علّقتُها على جنش مشابه.. انتقلت معي حيثما ذهبت لتصحبني حتى الليلة.انظر.. ها هي هناك!

توقف عم عبده وحده عن العمل بالمدرسة. حاولوا إثناءه عن قراره فرفض. قال إنه لن يطيق عجزه عن الرد حين يسأله ورد الحديقة عنها.

التقيته بعد سنوات، قبل أن يموت بشهر. أقسمت عليه أن يقصّ عليَّ كل شيء عنها، لماذا تقتل الفراشات نفسها؟

"لأنها أحبتك، سأخبرك...

حكموا عليها أن تتزوج مغتصبها، حسبما يقضي العرف والخوف حينذاك، أرادوا أن يطمسوا الفضيحة فطمسوا كرامة عمرها فيما طمسوا..

كان بلطجيًا من أوباش المحطة، على خده ندبة أسيء علاجها فحوَّلته لمسخ. كانت تركب القطار كل يوم ثم تستقل سيارة نصف نقل من أمام المحطة، تقلّها في الطريق "البراني" الموحش إلى المدرسة، تتناثر هذه السيارات أمام المحطة. كان فتوة السائقين، هو الذي يرتب أدوار السائقين حسب معايير اختلقها فصارت قانونًا، يؤثر نفسه بالجميلات وبمن يبدو عليهم اليسار. بشكل ما كان يعد كبير السائقين في ذلك المكان. هذا مكان تكتسب فيه وضعك حسب ما يكون داخلك من ضعة وسوء خلق. كان فتوة المكان وقاضيه وحاكمه، كان القانون وواضعه ومطبقه، لدرجة أنه فرض إتاوة على كل سيارة تتحرك بزبون ويوصي غيره بتسجيل السيارات المتحركة في غيابه .

عندما رآها أول مرة، متفتحة كالوردة ممشوقة كالوتد، آثر نفسه بها. نظرةً إلى السائقين أفهمتهم أنها زبونته، تقبّلته بمودة تُعامل بها كل الخلائق، طِيبة روحها واتساع صدرها للحياة وتغافلها عن تلك الرجفة التي تسري في قلوب الناس حين يرون ندبته جعلته يظن نفسه فارسها، حدثته في أمان وأشعرته بالمساواة وأجزلت له ثمن التوصيلة، فرض على السائقين ألا يقلّها سواه .

شيئًا فشيئًا أَلِفَتُه وأصبحت تتوجه لسيارته مباشرة، ألفت صوته البغيض الأجش وندبته الواسعة، ضحكت وأضحكته من الطريقة التي يوزع بها بصره بينها وبين الطريق حين يحدثها، ناولته زجاجة ماء في جو رطيب خانق، لم تشك في نيته ذلك اليوم حين غيّر خط السير متجهًا إلى أحد الأكنان ثم توقف مدعيًا أن السيارة تعطّلت.. آخر ما وعته كان لطمة قوية بظاهر يديه العاتية أسلمتها للفراغ.

لم يدر أبواها شيئًا عنها طوال يومين وليلة حتى عثرت عليها سيارة عابرة. كانت ملقاة بين أكوام التراب والحصى مرهقة متورمة الوجه ممزقة الملابس ومصابة بنزيف حاد. أخبرهم الطبيب أنها عرّضت للضرب والتخدير والاغتصاب عشرات المرات من أكثر من رجل. فرغ منها ثم تفضل على زملائه بلحم المدرسة الشقراء.. "وفي الطريق أيضًا تناوب التتر شيرين بلا رحمة السائقون والجنود بلا ضمير، والرمل في الصحراء لم يعبأ بقلب الظامئتين.. الكهف الذي أوحلته أنات الصامتين وصراخهم لم يعبأ برائحة الورد."

تفضل على أهلها بعد ذلك بقبول الزواج منها، حسبما كان متبعًا في ذلك الزمان؛ من غيره كان سيقبل التفاحة التي أصابها العطب؟ لعلها كانت خطته من البداية؛ للاحتفاظ بقارورة الماء البارد.

كانت تموت كل يوم، اغتصبها مئات المرات منذ تزوجا، كلما رأت ندبته ملأها الرعب. كلما قاربها ارتجفت، ضربها مئات المرات. عامان من الإهانة والبطش ودحر الكرامة، عامان في المحاولة اليائسة لقبول أمر فرضه عليها القهر والعرف والمجتمع، لم تتوقف عيون الناس وألسنتهم عنها رغم كل هذا التكتم المصطنع للعذاب، ضرب أباها حين عاتبه على الجراح والأورام التي سببها بضربه على وجهها، اغتصب مرتبها أيضًا، أصبحت مجرد كائن يحيا بين الناس بلا حياة، لم تكن سوى ميت يمشي بين الناس. شعرت بثمرة تنمو داخل أحشائها، اتخذت قرارها الحاسم. قررت وأد الروح التي بدأت تنمو في أحشائها بعد جدال طويل مع الجنش المعلق.

لم أستطع ردًا حين انتهى من قصته، لم أستطع مسح لحيته التي اخضلّت بدمعه الغزير. تركته غارقًا في نهنهته ومضيت بلا سلام.

10

استقرت المسيرة بعد حين فلم تعد مدهشة. غارت أحداث في غيابات التاريخ وبقيت أحداثٌ لا يبحث أحدٌ عن تفسير لها. استقر أمري على لقب أطلقوه عليَّ. الغوص إلى هذه المناطق الدفينة في قبر الذكريات عسير خطر، لحظات شديدة الغموض في دغل كثيف الظلال خافت الضوء. أشعر أني أقترب من الموت نفسه في استدعاء ما كان، توطئة لما سيكون.

أخذتني قدماي نحو البحيرة في ضوء القمر، انتظرت جنية البحر طويلًا، سهرت هناك حتى الشروق، لكنها لم تأتِ. أو أن خيالي لم يعد خصبًا كما كان. تابعت شيئًا داخلي يتساقط وآخر يرتفع، المشاعر التي تتناوب قلوب البشر لم تعد تنبض داخلي، الشفقة والحنين والتآلف، حتى الحزن عليهم انسحب. فليمت أبي ما شاء وليذهب المدرس للجحيم. قاتلها يهنأ الآن بحياته.. الحياة عاهر يستوعب فرجها العالم بكل أنذاله وأوحاله. اللعنة منذ الآن على كل ذكرى وكل مقدس.

وأخذتنا الأيام، صارت أمي عليلةٌ يحوم حولها الموت، لكنه لا يتغشّاها. مرة أراها كالمحمومة في جمع ريع الأراضي، لا تقبل تأجيلًا أو

إمهالًا في التحصيل، ومرة أراها كماء السماء رؤوم على كل محتاج يروي كل أرض. مرة هي الأرستقراطية الراقية ومرة يملؤها الحنين فتشارك الفلاحات عجن الخبيز. أمي باختصار، كل نساء الأرض في نفس واحدة. بقيت رغم كل شيء كبيرة في عيون الناس، حتى في أوهن حالات الشرف ظلّت مرهوبة الجانب. ثم استقرت أطوارها المختلفة على الانزواء في حجرة بعيدة من حجرات البيت، لعلها تمارس منها سحرها الذي أشاعوا عنها ولعلّها بقيت فيها تمضغ الذكرى، تشم من غرفتها روائح البخور والعطور وصوت أغنيات قديمة من زمن بائد.

*****

مرحلة الثانوية كانت أشد صخبًا واتقادًا، حسمَت تأرجحي تمامًا. مدرسة صارمة تبدأ طقوسها وتنهيها بطابور شديد الالتزام. يدخل الطلاب ويخرجون في نظام. يتحرك الجميع في الفناء بفخامة صارمة وشموخ رجولي صلب. وبين الدخول والخروج، تغضّ الإدارة الطرف عن التفسخ الحادث في الفصول بين الحصص. قشرة من النظام تطفو فوق باطن مائع. كل شيء كان خائرًا ومبتذلًا...

إلى أن جاء الرجل ذو الملامح الشامخة. منذ وصوله، اتخذت الأشياء مسارًا مختلفًا، وجوده كان الجدار الفاصل بين النظام والعبث. وفي حياتي،

هو الحلقة الفاصلة بين ما كان وما سيكون. تحوّل كل شيء إلى نظام حقيقي.. كلما ذكرته أشعر برهبة.. مدرس التاريخ.

كانت المدرسة شديدة الاتساع، مقسّمة خير تقسيم وأشده تميزًا. مكان مهيب مخصص للسيد المدير، ومكان أقل تحضرًا مخصص لفصول الطلاب وحجرات المدرسين. أبنية كثيرة سمحت بوجودها الأرض الفسيحة في تلك المدينة العريقة التي انتقلت إليها، ملحق بطرف المبنى جامع كبير ذو مئذنة شامخة ومكتبة تضم آلاف الكتب، وفناء فسيح مخصص للعروض والتشريفات ومباريات كرة القدم ومنافساتها العتيدة. منصة إدارة الطابور كانت أشبه بمنصّات الزعماء والأبطال، فوق هذه المنصة رأيته لأول مرة...

اشرأبت عيوننا لأعلى مأخوذين بحضوره وبلاغة كلماته ونبرة صوته.. يعرف ما يريد، يحدد الكلمات المناسبة وينطقها بالشكل الأمثل. في حياتي، سمعت الكثيرين والكثيرين، لكنني لم أُؤخذ بالكلمات هكذا، ما أروع الصادقين! يُوهَبونَ اللفظ المناسب والنبرة المناسبة، والصمت المناسب، عشرتي القديمة مع مدرس اللغة الأفّاك أعطتني قدرة استثنائية على تمييز الغث من السمين بين الأساتذة.. حضور العين المصاحبة للكلمات أعلمني أنه غير كاذب. هذه المرحلة، هي الحضور الحقيقي لكل شيء .

أراك حضرت أيضًا.. حسنًا، إن كانت قصته تمنحك هذا الحماس، فسوف أقصّها عليك من دون ترك تفصيلة واحدة. قليل من هذا البن اليماني الساحر سيجعل كل شيء ممكنًا. ليست الخمر وحدها المُسكِرَة؛ ألفة الأحبة مسكرة.. تصنع القهوة ألفة تفوق الخمرَ سحرًا. ما زلت أعجب من ألق حضورك عند وصولنا لهذه المرحلة وفتورك في كل شيء سواها. حسنًا، سأروي لك كل شيء، فما اجتمعنا هذه الليلة إلا لسرٍ غامض، أتؤمن بالضرورة التاريخية مثلي؟ لذة البوح تجتاحني .

بُترت ساق أحد الطلاب، اصطدمت شاحنة بسيارة أبيه فجمعت أولها بآخرها. أخرجوهما من بين الحُطام بعد أن نشروا الصاج بالمناشير، مات الأب مهشمًا من فوره وأخرجوا الابن. أفتى طبيب، درس الطب فيما يبدو بقسم الكهرباء، بمعالجة الساق بالمسامير وترقيع الجلد، اقتطعوا جلدًا من فخذ القدم الأخرى. استحال التئام العظم لتفتته بالداخل فأصبح القطع ضروريًا، قبل الركبة بقليل. ضمّد الطبيب موضع البتر دون تطهير مناسب، كشط الجلد بمكشط طبي. رأى الفتى ذلك بعينيه وسمعه بأذنيه، مجرد أربطة فوق بتر. أوصاه بترك الرباط قليلًا ثم يعود. قال الفتى للطبيب كلمات تعبر عن شكاية حقيقية لكن الطبيب ظنها ساذجة:

"يا طبيب، ساقي مجنونة يا طبيب، يريحها الضرب ويهيجها السكون؛ أشعر بشيء يأكل ساقي، رغبة شديدة في الحك، لو استطعت أن أصل إليها بأسناني لفعلت، يتوقف الشعور بالألم ورغبة الحك تمامًا عندما أضرب ساقي هكذا، انظر، هكذا، بقوة، يسكن الألم وأفقد الشعور بها، ساعة أو ساعتين ثم يعود "الأكلان" فاضرب ساقي مرة أخرى، هكذا".

رأى الطبيب أن هذه الضربة الشديدة التي تُسكت الألم مؤشرٌ جيدٌ على صحة الساق، برّر ذلك بأنه علامة التئام الجلد، زمّ شفتيه وهزّ رأسه كحكيم وصل للحل المناسب. أعاد توصيته بترك الرباط لفترة أكبر. ولمّا كشف الرباط في المرة الأخيرة بُهت وارتبك.. صدع المكان بصراخ الطالب، أخذ يصرخ ويصرخ مما رأى، كأن ساقه ضاعت مرة أخرى، تعفّنت الساق، طار السوسُ، رأَوا الدودَ يرتع في الجرح ولم يحتمل أحدٌ الرائحة النتنة التي انبعثت منه...

تدخّل مدرس التاريخ ليحرز أول مبررات تفوقه، استخرج تصريحًا لعلاجه على نفقة الوزارة. لم يكن التأمين الطبي للتلاميذ قد أُنشأ حينها. كشطوا الجلد الفاسد وأسسوا العلاج على طهارة، راسل مؤسسة علاجية، بعد شهر واحد تسلم الجهاز، رُكِبَ على الجزء الصغير الباقي من الساق، انتشى فبدأ المشي لحظة تجريب الجهاز، اكتشف أن قدمه الأخرى صارت

أقصر قليلًا وأن الأمر ليس سهلًا كما ظن، شعر أن نصفه الأعلى هبط قليلًا مدفوعًا للخلف. أوصوه بالتدريب والتأني وفقد الوزن، عاد بساق صناعية ثم تفرغ بعدها للحزن على أبيه.

*****

زملاء المدرسة الثانوية مُذهلون، لا يعرفون الأناة ولا المداراة، ألسنتهم لا تعرف الكمون، عروضهم أشد جرأة وأداؤهم أكثر حرية، ملتهبون كحمم البراكين، متحفزون.. كشأنك الآن. ما أروع أن تتلقّى بضاعتك عروض اقتناء في كل لحظة، وعروض ازدراء أيضًا. على قدر ما تبعث جرأتهم من فظاظة وغلظة، تستهويك ضراوة جموحهم والشجاعة التي يعاملون بها نشوتهم. يُرضُونَها بلا حدود. ليس الشباب في هذا الأوان سوى بركان في أقصى طرفي حالتيه، خمول هادئ أو جمر متقد، لا وسط بينهما، وهم بين هذا وذاك متقلبون بلا تمهيد. كلهم على شفا الحد الأقصى من الرغبة، حسبما يرى كلٌ لذته. يبلغ جموح أحدهم أن يدور بين "التُّخت" أثناء الاستراحة بين الحصص ناشرًا آلته، يتنافسون بأيورُهم، ويرون من الأبعد قذفًا. هل يمكنك أن تتخيل تلك البهجة الجماعية والأصوات الصاخبة وتبادل المزاح؟ كل انفعال بينهم مؤقت، الشيء الوحيد الذي يبقى هو وسم الطالب، فالموسومون بصفة يظلون ملتصقين

بها حتى لو رأيتهم بعد ذلك بأعوام. كان بينهم شابٌ اسمه يحيى، متخصصًا في منح الألقاب.. فالثلاثة الذين قبعوا في الدِّسك الأخير صامتين طوال اليوم أطلق عليهم لقب "أهل الكهف"، وهذا الذي يظل يضاحك الجميع أسماه "أراجوز"، وهذا السمين سمنة غير طبيعية أسماه "فتلة"، وأطلق اسم "أبو زلومه" على محجوب، راضع حلمات البهائم. وهكذا، لم ينته نصف العام الأول، إلا ولكل واحد صفة واسم لا يُنادى بغيره، سمَّاني الاسم الذي حدثتك عنه.. يعتبره الجميع سُبة، لكنني لم أغضب، ياللبذيء!

لو تحتمل كثيرًا من الثرثرة أيضًا لأخبرتك عن ثلاثة طلاب على وجه الخصوص، أحدهم ذلك المعلول قليل الجهد الذي عرفنا فيما بعد أن جسده بلا طحال، كان يرتدي مشدًا غريبًا على بطنه أثناء لعب الكرة ويلعب على الواقف، كنت دائمًا أسأل نفسي، لماذا قبلوا أن يصحبهم ويلاعبهم مستأصَلُ الطحال ورفضوا مستأصِلَ فكرتهم عن الرجولة والشرف والكلمات الكبيرة؟

الطالب الثاني كان سمينًا متعطشًا للحب، "فتلة".. كان يريد أن يحكي قصة عاطفية كما يفعلون. كان ابن سقاء يطوف على البيوت بالماء. وكان أجمل الطلاب خطًا وأكثرهم بلاغة، يشعر دائمًا أنه مُضطهد يُعامل

دون التقدير اللائق. عرض على كل زملائه خطابات العاشقة الولهى التي تراسله كل يوم تبثه الغرام واللوع، لكنه نسي شيئًا مهمًا، الخَط في جميع الخطابات، المرسلة والمستقبلة، كان خطه الجميل.. لم يكن أحد يستمع إلى قصصه ويقرأ تلك الخطابات إلا أنا، تتبعًا للكذبة ذات الخط المنمق والألم الحبيس.

وطالب ثالث اسمه مالك، من قطر عربي. أعرف أنها مرحلة متخمة بالأسماء.. ربما تهت مني وربما سئمت. أثناء الحكي، أحكي أشياء لنفسي أيضًا؛ أخشى أن تغضب أرواحهم إن لم أذكرهم، بالذكرى يحيا الأحبة. كان "مالك" وسيمًا وادعًا كأحلام المساء، فاحم الشعر جميل اللهجة. لم يكن يلعب ولا يصخب مثلنا، كان أشدنا تعلقًا بالعلم والدروس وأكثرنا إصرارًا على التفوق، جدية مؤلمة، غالبًا ما تبعث على التفوق لكنها تئد المرح ونشوة النجاح، كان حلمه أن يعود إلى بلاده طبيبًا. كان حزين القلب على البسطاء في بلاده، القمع يحرمهم من كل شيء، يضيع العمر هناك في غياهب السجون لأوهن الأسباب.

كان الحزن والإصرار على وجه "مالك" لا ينطفئان. حاولت منحه تسرية خاصة لكنه رفض في أدب، قال إنه يَقْبَلني كما أنا، لكنه لا يقبل أن يكون خَديني.

وبنفس المدرسة ابتليت بزمالة محجوب، "أبو زلومة"، الابن الأكبر لعم فخري. لأمي دخل كبير بهذه الزمالة، أوصت عم فخري بتوفير عين تتبعني في كل طريق؛ لم يجد الثعبان الذكي خيرًا من ابنه محجوب. لم يختلف محجوب كثيرًا عمّا كان في صغره، لم يتوقف سيلُ لعابه ولم يتوقف ولعه بالبهائم.. الذي تغيّر، هو أن كثيرات من نساء قريتنا أصبحن يهتممن به، يصممن على إيوائه وإطعامه. تطوّر عشقه للأبقار من حلبها ومص ضروعها لبث مَنّيِهُ فيها. يأتي الأتان في الزريبة. حاول زملاؤه كثيرًا تخيّل الأوضاع التي كان يتخذها فاستحال عليهم تصور ما يصف. كلما عيَّروه بذلك أخرسهم بكشف آلته العنترية.

*****

مات "يحيى" غرقًا، ذلك الذي حدثتك عنه منذ قليل، مُوزع الألقاب...

اشتمل المدرسة حزنٌ عميق ذلك السبت، تأثر المدرسون بشدة، سادَ جوٌّ حزين، لكنه حزن عاديّ، لا توهج فيه. لم تكن هذه هي الطريقة المناسبة لتلقّي مثل هذا الخبر الصاعق. انتابتني لوثة ماجنة في الحزن؛ دائمًا ما كنت أحسد النساء على العويل وشق الجيوب. كنت مفتونًا بذلك الشكل من التعبير وأراه الرقصة المناسبة للموت، أردت أن أحزن حزنًا خاصًا..

عدوت في المدرسة أصرخ بلا قيد وأنوح في كل مكان "يحيى مات، يحيى مات" لم أشغل بالي بنظراتهم، أخذت أعدو وأعدو وأهبط السلالم، كل ما مررت عليه كان صامتًا يشاهد، صرخت كما أردت ثم ارتميت أفرك الأرض بقدمي، وقفت في منتصف الفناء أخبط رأسي بيدي وأولول، جانبٌ ما بداخلي كان مستمتعًا بمشاهدتهم لي.. الأحزان والمبالاة لا يطرقان قلبي، كل ما في الأمر أنني أحببت هذا الأداء. كدت أحزن بالفعل مع شدة الصراخ، لكنه جاء، مدرس التاريخ، وقف أمامي كالهرم، وجدتني أقف تبجيلًا له، قلت في لهجة ثكلى:

"يحيى مات".

أنهى كل شيء بلطمة على وجهي. ارتجّت روحي من عزمها ودويها، لطمة باهرةٌ.. وااو! أكمَلَت متعتي؛ كانت حاسمة لا تعبأ بزمرتي وحزني. ليس من دافع لها إلا الصلف الكامن في ضاربها والترحاب الكامل من متلقيها. في وسط الفناء. كلهم رأوه يلطمني. ساد الفناء الواسع صمت كبير. وضعت يدي فوق خدي، عاتبَته عيناي في مذلة. لم أقو على النظر إلى عينيه الحاسمتين. شعرت بهدوء شديد يسري في عقلي وروحي، مضيت خارجًا من المدرسة.. وهدأ كل شيء..

عدنا إلى الفصل، كانت حصته، بدأ حزنه الحقيقي على "يحيى". دلف إلى معبد الحزن المقدس داخله، رأيت الحزن في صورته المُثلى بلا أي ادعاء، لخمس وأربعين دقيقة لم يرفع رأسه عن الأرض. اشتملنا السكون. وجم الطلاب كأن على رؤوسهم الطير، امتلأ كل واحد بذكرياته مع يحيى. هذا هو الحزن في صورته الأسمى، كيف طغى هذا الحِداد النبيل على كل نزواتهم ومجونهم؟ كأن موج البحر يسكن بأمره. عندما رن الجرس رفع رأسه وانصرف، لمحنا دمعة كانت تحاول أن تفر من عينيه، ظل السكون شاملًا، حتى بعد أن خرج.

*****

كنت حريصًا ألا تصل مسامع أمي إهانتي، لم أتحدث عن أي شكوى من المدرسة، لكن عم فخري جاءني قرب البحيرة يدلف كالثعبان، لا بد أن ابنه محجوب أخبره، هذا الرجل لا يشيخ ولا تظهر عليه آثار الزمن، احدودب الظهر قليلًا لكنه ما زال في كامل نشاطه، كل ما يتغير فيه هو أن العِمَّة فوق رأسه تزداد ضخامة وأن عتمة وجهه تزداد قتامة...

"تحب أعدي عليك في المدرسة؟".

هذا الثعبان يعرف من ابنه رضيع البهائم كل كبيرة وصغيرة. يبث مجسّاته في كل مكان بالبلد وخارجها، يعشق جمع المعلومات، يعرف المدرس ويعرف أنه لطمني. لم أطق مجرد الإحساس أن مثله يمكن أن يتحدث لأستاذ التاريخ، لا مجال أبدًا أن يلتقي البولُ العطر، ابنك عشيق الزرائب، كيف واتته الجرأة أصلًا أن يذكر اسم المدرس؟

"لأ، مش عاوز حد ييجي المدرسة".

"أنت تعرف، أنا دايمًا تحت أمرك".

لم أنظر إليه، انصرف زاحفًا كما حضر.

هل ذكرت لك كيف مات الثعبان الذي أكل الزغاليل؟ لا أظنني فعلت. لقد كان ذلك ممتعًا مخالفًا لما ظننت، قتلته عنكبوت سوداء، تخيل.. أنثى عنكبوت نادرة النوع، نسجت عشها على الأرض، خلافًا لما أعرف عن العناكب. اختارت أن تصنع كمينًا في حفرة يغطيها هشيم الأشجار وبقايا الحشائش، قطعت الماكرة حبلين أو ثلاثة من نسيج عشها ليطمئن العابرون من الذباب والحشرات. مرّ الثعبان فشَّم شيئًا، دلف إلى بيتها بنفس المكر، تحوّل لونه لما يشبه اللون الأخضر، لون الحشائش، زحفه المثير يطمع في صيد مشبع، دائمًا هو مطمئن للفوز. أما هي، فتربصت في صمت أعمى ترصد الهمس. اهتز النسيج فعرفت أن زائرًا وصل، شمخت بلا حراك في

آخر الجحر، اطمأنت لتمام ولوجه. ظل ذيل الثعبان خارج العش. تابعتُ بنظارة معظمة خيالات الصراع بالداخل، تصارعا لزمن غير قليل. غاب المشهد، لم يكن من اليسير تحديد الغالب والمغلوب، اشتباكهما ملغز، سكن ذيل الثعبان تمامًا وأخذت تدور حوله من أوله لآخره. كفنته بالحبال، الزاحف يقتل الطائر، ثم يلقى الزاحف العظيم حتفه في النهاية على يد حشرة واهنة البيت، استمرت عملية التحنيط نهارًا كاملًا، استراحت بعيدًا لفترة أخرى، خلال أسبوعين، لم يعد باقيًا منه إلا قطعة مهترئة جلد كالمضغة خارج العش. لست أدري، كنت دائمًا أنتظر لعم فخري ميتة مشابهة.

11

أراد أحدهم ضربي دفاعًا عن أفكار مثالية في ذهنه، أحد الذين يضمرون الحقد والذين يظنون أنهم حماة الفضيلة. اسمه عزيز، كذبة أخرى تلوكها الألقاب، ليس سوى ابن كلّاف. قضى أبوه معظم عمره بين روث البهائم ودنان البوظة. ترّبّص بي لحظة الخروج من المدرسة في منطقة خالية، حارة ضيقة ذات فتحتين. سدّ عليَّ الطريق فلم يُمكنّي تجاوزه. من الذي راهن على هذا الجواد الحانق؟ أدَفعوا له مقدمًا أم كانا سيدفعون بعد تحقيق المطلوب؟ وما المطلوب؟ رهانٌ سخيٌّ قد يدفع معوزًا مثله لغبٍّ ماء البحيرة المالح غبًا. كان الجو خانقًا، الغضب والعرق كانا يكسيان وجهه، قذرًا يحمل كتبه في شنطة مرقعة من القماش.

توقّعت من نظرته ما أضمره؛ للحقد رائحة. كان شديد البأس مليئًا بالتصميم، قصيرًا مدكوكًا إلى الأرض، معروف بالشراسة وأكل البصل. شممت المقت في نبراته، وشممت رائحة المراهنين بالقرب، يراقبون ويترقبّون؛ شخص مثلي قد َيدفع الكثيرون أموالًا لإيذائه.

سألني عن علة غيي وقلة وقاري..

قررت قبول الطُعم، ابتسمت للتحدي. رحت أهتز على معزوفة موسيقية معه، رقصة مفردة، رفيقي فيها لم يكن يتفضل بالمشاركة حتى بوطء قدمي، صلب كاليأس. يحلو ليَ الخوف أحيانًا، لكنني هذه المرة كنت جسورًا، كانت عيناي تراوغانه وعيناه جامدتين. سألني أن أرجع عن "اللي أنا فيه"، الغيّ والشذوذ.

"مالك وشذوذي ما دام عنك بعيدًا؟".

"انت عارع المدرسة والبلد والرجولة ذاتها".

"يا عزيز، العار كلمة كبيرة، لماذا تطلق ألقابًا كبيرة. العار أن ندَّعي، لا أن نتكاشف".

"مش عايزين غير النضيف بيناتنّا".

"النظافة والقذارة تطوفان على كل الأجساد".

"النجاسة غير".

"لماذا أنا بالذات؟".

"تقصد إيه؟".

"أقصد محجوب، تعرف أنه ينكح البهائم".

"أني ماليش صالح بالبهايم".

التفاهم مستحيلٌ؛ صدق عزيمته على كسب الرهان أهم لديه من نقاش حول مفهوم الفضيلة. كلما هممت أن أرفع مستوى الحوار أسقطه، التزمت بالفصحى والتزم بالعامية. كلماته فقيرة، لكن تحفزه كبير. كنت استمرئ النقاش وأطيل الوقت حتى يصلوا؛ لا بد أن "محجوب" علم بالأمر، سترسل أمي الزمرة إذا تأخرت دقائق أخرى. الجياد ستصل في دقائق. كنت أتمايل يمنة ويُسرى عابثًا أمام جهامته وجديته المفرطة وعزمه الملتهب.

"العالم ليس مكانًا للكمال يا عزيز، لا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها.

دع الناقصين يمرون في سلام".

قلت جملتي الأخيرة وأنا أحاول المرور. دفعني قائلًا:

"العالم هيبقى أنضف لو اللي زيك انزاحوا".

"لماذا تقسم البشر إلى نظيف وقذر؟ لعلك ذو أقذار لا أحد يعرفها يا عزيز".

"محدش قذر غيرك، محدش عمل اللي انت عملته ف بلدنا".

"لم تمسسك سوآتي فدعني وشأني".

"حُكْ حجر ولا تحك دكر".

ياللسوقية. أعوزته الكلمات وتعجل إلى اللكمات، أجبته بقحة فجة:

"يا عزيز.. يا عزيزي، الحجر مؤلم، سيجرحك، دعني أمر".

"مش قبل ما تنفذ اللي أنا عايزه".

"وما هذا الذي "انت عايزه؟".

"تقلع البنطلون وتمشي عريان".

أزعجتني الفكرة. هذا هو الرهان إذن.

"ألا تخزَى؟".

" اخز انت على عرضك وبطل نجاسة".

"لا أظن أن نجاستي" تلك" ستنتهي، وأن البلد ستشفى إن خلعت بنطالي وسرت عاريًا".

"إن معملتش اللي باقولك عليه بالذوق، حتعمله بالعافيه".

"أوووه، بالعافيه، طب وليه؟".

"واشمعنى أنا".

كان أقرب إلى الهمس في جملته الأخيرة، أراد أن يسحبها أو يوقفها في الطريق قبل أن تصل إلى أُذني. لم يستطع أن يستعيد وجهه بسهولة. كنت أدري، كان ملتزمًا بالرهان أكثر من التزامه برغباته الحقيقية.

خرج رفاقه من أكنانهم. تمنى ألا يكون أحدهم قد سمع كلماته الأخيرة. جحظت عيناه ونفر الدم في عروقه. لم يعد أمامه إلا أن يُري

الرفاق الجزء الباقي من الرهان، حال إن فشل الجزء الأول، ضربي وسحلي، أعرف هذه الرهانات.

شممت ريح الجياد متزامنة مع ريح توثبه، اندفع بجسده نحوي، اشتبكنا. لماذا يظنون أن أمثالي بلا بأس؟ نحن نتخلى عن طباعنا طوعًا، كيف أوعزوا إليه أن ينسى زمرتي وبأسي؟ كما وصل رفاقه، وصلت عصبتي، تدخلوا بعنف. تقهقر أصحابه وبقي وحيدًا أعزل؛ باخ عزمه وخارت عيناه، وكنت قاسيًا. جعلته عبرة للسائب قبل المربوط؟ إلى متى تظل سطوتي بلا عمل؟ لست عامر الغلبان أيها الشقي. لم يرضِني إلا أن أراه بائسًا بلا حراك راقدًا كالكسيح فقط، مرَّغت وجهه بالتراب، دست رأسه بحذائي ونظرت إليهم. نظرة كانت كفيلة بهجوم الزمرة وتأديبهم أيضًا. لم أشأ أن أكون رخيصًا وأخلع بنطاله، ليس إلى هذا الحد. لم يتعرض لي مرة أخرى، لا هو ولا غيره بعدها...

تزعجني محاولات البعض تطبيق أفكارهم على الآخرين..

لم يذهب إلى المدرسة بعدها، ربما كان هذا حكمًا حكمه عم فخري، وربما كان الرهان أن يترك المدرسة إن لم يفزْ بالرهان. بلغني أنه تعهد لمراهنيه بتحقيق ما اتفقوا عليه يومًا آخر.. الرهان باق ولو في جهنم. أيظن هذا "العبيط" أننا سنجد وقتًا لخلع البناطيل هناك؟

أراك تململت، رغم أني شعرت أن المرحلة الثانوية استثارتك دون باقي القصة. أتنتظر حدثًا معينًا بشأنها؟ بإمكاننا صنع الكثير من البهجة لو أرخيت ملامحك قليلًا، لو أظهرت لي شغفًا. ليس الجو باردًا لهذه الدرجة، لماذا تصر على خنق الفرص ووأد البهجة المحتملة؟ الليل مغرٍ يا صديقي فاسلكه، ودعه يسلكك. لقد أرسلت في طلب طعام، سأحدثك عن آخرين كانوا هناك، المتزمتين الذين تجاهلوني كالكلب الأجرب، المرابطين بمسجد المدرسة بين الحصص. لا يقبلون فكرة الظمأ ويديرون العالم من رؤوسهم فقط؟ دبروا لإلقائي من شاهق؛ ادّعى أحدهم أن هذا حدُ أمثالي في الدين، لكنه رأى زمرة الذئاب تُزمجر هناك في صحن الفناء فاختفى.

يظنون أن على عاتقهم مهمة إصلاح هذا العالم، لم يكن كل ذلك ذا أهمية. لكن على قمة جبل الناكرين كان مدرس التاريخ. مثلك تمامًا؛ كانت هذه النظرة في عينيه، بادية الصرامة، تعرف ما تريد، تمتلك القدرة على المجابهة وتمتلئ بالغضب. للأسف، لم أقوَ يومًا على تثبيت عيني في عينيه، ما زالت تسري رعدة بداخلي ويقشعر بدني رهبًا كلما ذكرت نظرته. وجهه واحد لكنه بعيد، هذا البعد يسحرني، كان جامد الوجه بارز عظام الخدين والجبهة والكتفين طاغ الحضور، خطُه يتسم بالغرور، يحيط التواريخ على السبورة بدوائر طباشيرية مغلقة تأسر داخلها أروع الاستدلالات، يردد

دائمًا أن هذا الوطن شهد كل أنواع الظلم والاستعباد لكنه لم يعرف الخنوع أو ينكفئ.. مثلي.

وبين هؤلاء وهؤلاء، كانت هناك مجموعة تفصل بين الفريقين كالنهر الرائق الذي لا يعبأ في مساره بأحد، أولئك هم المتفوقون الذين يحوزون الدرجات العلى بينما يتغافلون عن الحياة. كانوا يسألون مدرس التاريخ أسئلة كثيرة وكبيرة ويمنحون وجهه ألقًا فينطلق في شروحه، ليس في رواية التاريخ بل في استخراج العبر، كان يثق في المرويات جدًّا، يصير كالعصفور أو كالنسيم الرائق عندما يتحدث عن مجد الماضي، يصبح أنشودة. كاد المقت يحرقني، ثقته بالتاريخ والأوراق أسقمتني. وددت أن أسلط الضوء على عهده فيبقى وحده في بؤرة الضوء، خارج إطار التاريخ، لا تشوهه أقلام المزيفين، لحظة ثابتة في الزمان والمكان. التاريخ هو العهر الكبير يا سيدي الأستاذ، جُد لي بذاكرة لا يأكلها الزمان وحقائق لا يبول فوقها مالكوا الأزمّة، ربما تروي عنك هذه المدرسة يومًا أنك دمرت حوائطها وخربت عقول بنيها.

12

تأرجحت مشاعري نحوه بين الرفض والقبول، لكنها كانت تضطرم في الناحيتين. لا سبيل لنكران عظمته وحبه للمدرسة وقوة تأثيره في حاضرها ومستقبلها. حتى الأمور التي لم يكن من المفترض أنه يتقنها، كان يجيد إدارتها. كرة القدم، كنت أظنه يعد اللعبَ تفاهة وأنه ليس من ذلك النوع الذي يرتدي زي المنافسة من أجل الفوز بمباراة. لم يكن يذكر اللعب، لكن هذه المباراة التي فُرضت على المدرسة في دوري المدارس كانت مع نجع النابُلسي، الزمام الذي سيطر عليه الخُطُ ورجاله منذ عهد أبي، زجر أحد الطلاب حين سأل متحمسًا، "أنلاعب فريق الخط؟ هذه خيانة". قال إن اسمه فريق النابُلسي، "لا تسمح للسانك أن يعتاد غير هذا الاسم، الخيانة هي الحياد وترك الساحة للأوغاد". حتى الفتى مستَأصل الطحال، أشركه في المباراة بطريقة لائقة، أوصاه بحمل زجاجات المياه وشنطة الإسعافات، كلَّفه بعمل قياسات للاعبين ومتابعة مدى التزام كل لاعب بدوره وتحديد نقاط ضعف الخصم. سمح للبدين أن يكتب بخطه الجميل مهمة كل لاعب وتوصياته الخاصة وتوزيعها في نهاية كل مران. أصبح الكل في واحد،

كشف الجميع عن أنبل ما فيهم ولم يعد ثمة وغد بينهم، حتى أنا، لم أعد أسرق.

مات الخُطُ الكبير بعد أن نصّب نفسه عمدة على كفر النابلسي، تلاه خط آخر ثم آخر، منهجهم المنظم في الطغيان لم يكن يسمح لأهل النجع بالفكاك. تخطّى فريقهم كل الفرق في دوري المدارس، لم يكن أمامهم إلا فريق مدرستنا للفوز بالدرع إلى الأبد، فريقهم متكامل وحارسهم عملاق، وقف كالسد المنيع أمام كل محاولات الفرق السابقة. دفاعهم وهجومهم يتسمان بالصلابة والثقة، لكنهم كثيرًا ما جنحوا للغرور.

امتلأت مدرستنا حماسة يوم المباراة، كان الجميع يعلم أن الفوز مستحيل. انقسمت إدارة المدرسة إلى قسمين، محبطين بلا أمل ومتحمسين باندفاع. الحماسة بلا ترتيب وعدم احترام قدرات الفريق المنافس هما سر الهزيمة في مباريات سابقة. كان داهية. تولّى المسئولية بلا ضجيج، جهَّز الفريق في ثقة، منح نفسه الوقت الكافي لوضع استراتيجية اللعب، نظّم الخطوط وحدد المهام. ها قد لمعت بارقة ابتسامة في عينيك مرة أخرى، نعم نعم، أنا أيضًا متحمس لذكر هذا الرجل، فماذا لو رأيته هذه المباراة؟ يا لمعة عينيك.. كان كل شيء مجيدًا. عَلَّمَ اللاعبين واجبات المراكز والصبر على الخصم ومداهنة الوقت، مناورات الهجوم وتشكيلات الدفاع، دقة

التصويب واستغلال أنصاف الفرص وإتقان ضربات الرأس. كانت الخطة أن يتحرك الفريق ككتلة واحدة، دفاعًا وهجومًا، صلابة الهجوم لن تكون إلا بدفاع مُركزٍ وحارسٍ يقظ، عند الدفاع يتكتل الفريق بشكل هندسي، رسمه بدقة، لا يسمح للهواء أن يمر، وعند الهجوم ينطلق طرفا الجانبين على أن يعود لاعب الوسط لتأمين الدفاع، الضغط في جميع أنحاء الملعب وإرهاق حامل الكرة، لم يترك حرية التحرك إلا للاعب واحد، هو أمهر لاعب في الفريق، طالبه بتنويع الهجمات وكفاءة المباغتة ودقة التصويب والمحافظة على دقة الهجوم عند الهجوم ومهارة الاحتفاظ بالكرة عند الدفاع، سأله أحدهم:

- أنهاجم؟
- هاجم وفي عقلك الدفاع.
- أندافع؟
- دافع وفي قلبك الهجوم، انتشروا في كل الملعب، واحدكم بفريق وفريقكم واحد، كونوا بقلوبكم وأجسادكم في قلب المباراة.

تركوا مقتنياتهم في حوزة اللص القديم، أموالهم ومحافظهم، ساعات أيديهم، أشياءهم البسيطة التافهة. أفرغت شنطتي من الكتب ووضعت متعلقاتهم ثم تابعت المباراة. كانت البداية مبهرة.

سحقهم فريقنا في النصف الأول من المباراة، أحرزنا هدفين من قذيفة وضربة رأس، كان كل شيء معدًا بحكمة؛ عندما يكون الفريق على قلب رجل واحد، هدفه محدد ويقاتل من أجله بعمق، يكون النصر، أو الخسران بشرف. سارت المباراة كما خُطط لها بالضبط، ثباته منح فريقنا الثبات، وحماسته منحته الحماسة. لم يكن الخصم سهلًا رغم ذلك، استطاع تدارك نفسه، أحرزوا هدفا ناصعًا لا شك في براعته، استطاع مهاجم بارع أن يتسلل بين قلبي الدفاع، شتتهما بمهارته، جندلهما ومر نحو نقطة الجزاء ثم صوب بدقة حاسمة.

ازدادت خطورتهم بمرور الوقت، وضح أن خط ظهر فريقنا بدأ يرتبك وينكشف. بدأ قلبا الدفاع يتبادلان الاتهام في الملعب حول المتسبب في الهدف ثم لاما لاعب الوسط المدافع. لم يكن كل هذا احترافيًا، نهرهما المدرس لكن صياحه تاه بين هتافات الجمهور من تلاميذ الجبهتين. أصبح أهم شيء في الجزء الباقي من عمر المباراة هو الحفاظ على النصر. أغفلَت الخطة مبدءًا مهمًا لم يتم اكتشافه إلا في قلب الحدث، توزيع الجهد بالشكل المناسب على زمن المباراة؛ اللاعبون أنهكهم الركض، ترهّل النسيج قليلًا. اكتشفنا أن التحكيم ميّال إليهم بشكل جائر، كادوا يدركوننا في جبروت ردة فعل هجومهم، لكن انتهاء الوقت أنقذ النصر.

*****

كلما حققت هذه المدرسة انتصارًا، توقفت عنده ولم تبنِي عليه، بدلًا من أن يكون النصر قوة دافعة ولبنة يتم البناء فوقها تجدهم يعرقلون الزمن؛ لا يعرفون للوقت قيمة، يُلقون أوقاتهم في البحر. بينما ذهب الخُط يستجمع نفسه ليضمن عدم تكرار الهزيمة والانتقام من فريقنا حتى لو اضطره الأمر إلى اصطياد اللاعبين خارج الملعب للقضاء على مهاراتهم، تفرّغت مدرستنا للاحتفال بالمدرس، نصبوا له منصات التتويج وبدّلوا نفسه بكثرة النياشين، نظموا له القصائد وأقاموا له الاحتفالات. سقوا بذرة الغرور فصارت شجرة وفيرة الظلال؛ أصابه هوس العظمة. الإدارة وناظر المدرسة لم يعودا يناقشانه في قرار، لم يعد يشاورهم بالأساس، لم يعد يسمح بالمراجعة، أصبحت المدرسة تدور في فلكه. تضخمت ذاته فلم يعد يرى سوى نفسه ولا يطرب سوى لصوته. قرر أن المدرسة لن تخوض مباريات أخرى، ستلتزم بالدراسة، ليس بعد اليوم لعب، ألغى حصص الموسيقى والألعاب والرسم، وجّه الجميع نحو ربح المعرفة.

كان مفترضًا لهذه المباراة أن تكون بداية التفوق على الخُط ودحر جميع الفِرق، كرة اليد والكرة الطائرة والسلة وألعاب القتال. لم نكن عصبة حمقاء كما كانت الزمرة في صراعها، بل كان كل شيء خاضعًا للترتيب والتدريب

وحسن توزيع المهام، كانت هناك خطة، المفترض أن يعلو الصراع الدرامي للنهاية، لكن على العكس، ساد جوٌّ باردٌ من ادعاء المحبة مع نظام الخط، أصبحت إدارات المدارس في وادٍ وطلابها في وادٍ آخر، تمّ تبادل المدربين وأنظمة التدريب، تلاقت الفرق في دورات تدريبية فاترة. كلتا الإدارتين تبتسمان وهما يخفيان النصل. ألم أقل لك، التاريخ مليء بالادعاءات السافلة المبتسمة. الأوراق المكتوبة تحكم كل شيء في النهاية. لم يكن هذا تبادلًا للنشاط الرياضي، بل كان مذبحة تنازلات. ظن أنه الرب الذي لا يراجع قراره، والذي لا يأتيه الباطل من أي مكان، أي مراجعة لقراره كان يصفها بالخذلان، وربما طالب الإدارة بإقصاء صاحبها. لا أمانع أن يصاب الرجل بجنون العظمة أو يظن أنه سيد الأكوان، أظنني أكبر مجنون من هذا النوع في العالم، لكنك لا تستطيع أن تصبح مجنونًا وأنت تدير مدرسة كمدرستنا، ثم يعاملك من حولك على أنك سيد العاقلين. اتخذت العصبة الحمقاء منذ ذلك الحين مسارًا جديدًا وخططًا أكثر دهاءً قوامها النقر الهادئ المتتالي حين يكون اللعب سجالًا، والهجوم الغاشم إذا انكشفت المساحات؛ في كل لحظة يحرزون تقدمًا، فإن لم يكن هدفًا فهو استحواذ على الكرة أو إبقاؤها في منتصف ملعب الخصم.

كيف استطاع بقرار أن يفوز وكيف أعلن، منفردًا، توقف النشاط؟ كعادته، مبهرٌ يفاجئ اللحظات بتغيير المسارات. لم يكن ممن توجههم الأحداث بل كان هو الذي يوجهها.

لم أستطع رغم ذلك أن أبغض جنون عظمته، أسرني هذا الرجل المغرور الواثق، ملامحه التي تضج رجولة، تجاهله لي، نبذه المتكبر، يملكني من غير أمرٍ بالامتثال، صوته الآسر ونبرته المتسيّدة، نظرته المتعالية، خطواته الواثقة، تجاعيد وجهه الناضجة، كان نموذجًا للبطل، ذلك النوع الصادق في كل دربٍ، صدقه جعله مدربًا لكرة القدم وهو الذي لم يمسسها قط، صِدقُه حين وقف على الخط ملتهبًا يصرخ وينثر الحماس في عروق اللاعبين، وصدقه حين جلس في هدوء مشعلًا غليونه وهو يقرر، على عكس رغبة الجميع، تجميد النشاط. كم كنت أتمنى أن أراه عاريًا، لا بد أنه جسورٌ وحاسمٌ، يا ويلي، كيف كان صدقه في شهوته؟

أطلقتُ زغرودة طويلة بعد انتهاء المباراة، لم أكن أقصد تقليد النساء؛ هذا أفضل تعبير للفرحة خطر ببالي لحظتها؛ أردت أن أضحكهم وأمنحهم بهجة وأن يبلغ الصوت المدى، بالفعل ضحكوا، لكنه رفع رأسه وثبت عينين غاضبتين نحوي فساد السكون. بدأ الحصة التالية قائلًا بطبقة الصوت العميقة التي يدخرها للمناسبات الكبرى، حين تمتلئ نفسه بنفسه:

"على الخارجين عن نسقنا أن يبحثوا عن مدرسة أخرى. المارقون يؤثرون بالسلب في باقي الطلبة، إما أن ينصاعوا جميعًا أو يعلنوا الرحيل. لن أسمح أن يشذّ عن الفريق شاذ أو تحتوي مدرستنا مناهضًا لأفكارنا في هذا الوقت العصيب".

ياللمغرور! يالسرعة هدمه لجسور التوافق، حتى الأوقات العصيبة أيها السيد لا تسلب الناس حقهم في الحرية، التحدي واضح، كشأن كل من تدين لهم الأمور، يكاد كل مدرس ينتقي تلاميذه، الولاء للمدرس وليس للمدرسة. الاحترام والكراهية كانا يتصارعان داخلي بدرجة رهيبة.

في احتفالية المدرسة بالنصر، سمح لي بالانغماس بين الطلبة، يبدو أنه كان يريد أن يمنحني فرصة للوجود بينهم، لكنه أرادني بالشكل الذي حدده هو. رفضت ذلك؛ لم أقبل قط إلا أن يتقبلني الناس كما أنا، كنت معهم في المباراة، مشجعًا ملتهبًا، لم تتحرك نفسي نحو سرقة متعلقاتهم ولم تحدثني بذلك لحظة، كان النسيج واحدًا، وها هم يعودون لتقسيم البشر حسب قوانينهم وقواعد الجدارة وفق معاييرهم المتخثرة.

هل تستطيع استيعاب التضاد القادم في جملتي التالية؟ لم أكن أخشاه لكنني كنت أوقره، لا تسألني كيف، لست أدري. كنت لأمتلك القدرة على مجابهته لو تعلّق الأمر بالدرس والتاريخ، قرأت مئات الكتب وأعرف

الكثير، لكنه في منطقة ما بين الخريف والشتاء. ينظر لي نظرة، كيف أصفها لك؟ هل جربت غمد السيف في كبدك؟ هل جربت أن يضيق عليك العالم كنملة رأت فيلًا يقترب؟ هل قاسيت عناء الذوب في ثلج وأنت نار؟ كم أردت أن أكون في جملة المحيطين به من هؤلاء النابغين، أن أوجّه له أسئلة تحيّرني، لكنه كان شامخًا عتيًا مليئًا بالبعد والغرور والصلابة، كان يتعامل ككبير المدرسة ورب الأسرة وكانوا ينصاعون له. كنت أبغضه أيضًا، لست مخلوقًا يسير مع القطيع كما تعلم؛ أنا غيرهم، الروح التي يحتويها قالبي غيرهم. لست في وفاق مع مبادئ هذا العالم، مقدماته المنطقية تضجرني ولا تؤدي بي إلى نفس النتائج، السبب بسيط، أعرفه وينكرونه، أنهم جميعًا، باستثنائه، مدَّعون؛ إذا تحدثوا عن الشرف بجَّلوه، وإذا أقفى أتوه.

13

خرجت من الشرنقة، لا كما احتالت لتكويني الطبيعة. المعجزة الحقيقية أن تكون ما تريد وتحوّل كينونتك بجهدك نحو مبتغاك مهما عصاك العالم. خُلقت للتحدي، فكرت يومًا أن أمنح أحد أصابعي لصديقي الثعبان، اقتربت منه فعلًا، حين انتصب واقفًا ارتعبت، عدت خطوتين في هدوء ثم أطلقت ساقي للريح.

*****

راودتني عين أحد هؤلاء النابغين في تلصص أعرفه؛ أراد أن يتخطّى العيون ويبلغني وحدي. تودّد، شجعته فتشجع. بعضهم تعوزه براعة البدايات، أعرف هذه النظرة المترددة والخطو الوئيد، أولئك الذين تتعثر أحلامهم خشية أعين الرقباء. كل من يعبأون بالآخرين يمارسون نفس اللعبة، التخفي عن العيون، سرٌ يتصل بين اثنين في جموع، يظنان كل الظن أن لم يبصرهما أحد، وجْدُ الأحبة غير خاف، مهما تسربل بالعفاف. هذا ما حدث معك أيضًا، لا تقلق، شغفي هذه المرة جعلني أشد حرصًا فتأكدت من حفظ السر.

تلاقينا، كان هامسًا ومتعجلًا يتلفت حوله. شرطه الوحيد السرّية، ظن أنني أسمع هذه التوصية لأول مرة، تم الاتفاق بسرعة. سحب يدي نحو أبواب مدينته مختبرًا صدقي، منحته اليقين، دخلتها بلا وجل، فغر فاه دهشة. راقني ورقته؛ مدخل المدينة مقبول، أطعته. البدايات مضطربة، شوّهها تسرعه وخوفه. إبداء الانبهار حيلةٌ ناجعة دائمًا، خصوصًا مع أمثاله، تربكهم التجربة الأولى، لا يعنيهم سوى الوصول، ياللشعراء! لا يدركون قيمة الصحبة إلا بمرور الوقت، عندما يتخلصون من ذواتهم وأفكارهم يتطور أداؤهم، كان البحر مليئًا بالموج، صبرت حتى تنتهي الدهشة الأولى ثم سبحت به على مهل.

كان يحلو له تجاهلي وازدرائي، أغدقت عليه بمالي وأسرار نشوتي. فاجأه العالم الذي كان يختبئ منه. تقزّز بعد اكتمال أول تجربة، بكى ونأى بجانبه، كنت أعلم أنه سيعود، وسيبكي مرة أخرى. قطعت الطريق على ذلك الخيط الدقيق اللا مرئي بين الاشمئزاز والنزوع حتى يعود بلا بكاء. ابتعدت عنه حين نفرت نفسه واقتربت بحدود حين كان يتردد بين التودد والإحجام ووُجدت بكل قوة حين كان يملؤه الشغف...

كانت قصة تكاد تبلغ حد الاكتمال...

لنصف عام أو يزيد، كنت واحده وكان واحدي. قال إنني أمنحه الإثم بلا حدود، وصفاء النفس من الأكدار بلا حدود، وأمنحه انطلاقة الدموع الحبيسة، تنهمر دموعه بلا أسباب معروفة له، لم يخرج كاملًا من أسر الحلال والحرام، القيود التي تجعل العاديين يختبئون من رغبات المروق من مكبّلات الجسد. كان دائمًا يشك أن الناس يعرفون. كان يعشق الشعر ويخفيه عن أبيه، قرأ عليَّ قصائده. كانت ركيكة جدًّا، أخبرته برأيي صراحة فعيّرني بشذوذي، الشعراء لا يطلبون الرأي إلا لتقول لهم ما أبدعكم. تفوَّق في دراسته. كنت أذهب للسهر معه بحجة المذاكرة. لم يَشك فيّ أبوه، لكن أمه كرهتني منذ اللحظة الأولى، لم تكن أمًا كأمي بل شيئًا مختلفًا تمامًا، تتابع كل تفاصيل أبنائها، تعرف كل شيء عنهم، تترصّد تغيراتهم، أصحابهم الجدد، ترتّب الدروس واللعب والحياة، بأي نوع من قرون الاستشعار تفهم النساء ما يمور في جوف الرجال؟! أدركت أن ثمة تغييرًا حدث لابنها، تأخرت في اكتشاف الحقيقة؛ لأن شكوكها كانت تدور في نطاق العادي والممكن؛ كانت تبحث عن أنثى.

جاءت إلى المدرسة ذات صباح لتسأل المدرسين عن سر انطواء ابنها. قابلت مدرس التاريخ، لا بد أنها حدثته عني كأقرب الأصدقاء. استدعاه إلى مكتبه ولم يستدعني، استدعى بعض التلاميذ. لست أدري ماذا دار

بينهم، لكني أعرف نظرة المقت في عينيه وحرص رفيقي على السرية. أكلت نصف فمي وارتجّت ساقاي، زلزلت الديسك والوجود، لم أطق ممن حولي أحدًا، عزلوني عن قضيتي وشأني، ماذا دار بينهم؟ لماذا خرجت أمه غضبَى كمن قرَّ عزمه على تدمير المعابد؟

في ذات الوقت، كانت أستاذة الجيولوجيا تشرح درسًا بلا قيمة، لا أذكر منه إلا تضجري واضطرابي، وطنين صوتها الرفيع، ذلك الصوت الذي يطن حين يتكلم أحدهم وأنت تكابد النوم فيعصيك. درس سخيف مطوّل عن طبقات الصحاري وعصور التكوين، أي فائدة تُرجَى من ذلك وقلبي يعتصره اليأس، عضضت يدّي كما كنت أعضها في صباي. أعرف كم يخشى صاحبي الفضيحة. صرختُ فجأة، صرخة كتلك التي كان يصرخها أبي، سمعت صوته في صيحتي، ملأ الفصل صمت مذهول وتسمّرت المُدرِسة في مكانها، جلست في مكاني، مرة أخرى بلا تفسير وبلا حيلة، طلبَت مني بكل أدب أن أخرج من الفصل. لست أستطيع أن أصف لك كيف مرَّ عليَّ الليل، خاصة بعد أن استدعت المدرسة أمي أيضًا.

ذهبت أمي إلى المدرسة في اليوم التالي بناء على استدعاء بالهاتف. كانت مثلهم جميعًا تتوّج مدرس التاريخ بتبجيل واحترام، تعرفه منذ بدء المرحلة الثانوية وبينهما رغم قلة الصلة تقديرٌ يتسم بالهدوء، عادت نضرة تمتلك

بهاءها القديم، ألقى سحره التاريخي عليها فاستعادت شبابها. دَخَلَت حجرة الناظر وذهبتُ إلى فصلي، بحثت في كل العيون عن تفسير ما حدث، اليوم يمر عاديًا جدًّا. رفيقي لم يكن في المدرسة، بحثت عنه من طرف خفي. كان صعبًا أن أسأل عنه بشكل مباشر. "الديسك" خالٍ. كلهم يتجنبون قربي. قبل انتصاف اليوم عرفت ما حدث، لم يعد اسمه موجودًا في كشوف الفصل.

نقلوه، لا أثر له، مكانه مشغول بمحتلٍ آخر. يضحكون ويمرحون كأن قلبًا لم يمت. مرّ اليوم ثقيلًا، ذهبت أمي بغير أن أراها، لم أدر أكانت غاضبة مني، أمِّن هذا الذي ظن أن السلام في فرقة الأحبة.

لم يوجِّه لي مدرس التاريخ حتى لومًا بسيطًا، لم ينتهرني، كأنني لست طرفًا في الأمر، لم يعد يعتبرني موجودًا، لم يعد يراني، كهذا الفراغ في عينيك، عندما أنظر إليك، أشعر أنك لا تراني، تسمع كلمات المرحلة الثانوية لكنك لا ترى قائلها. أصدقني القول أيها الشارد، أتراني؟ أتعرف حجم ما فعلوه؟ ملأني الغضب، اعتورتني سورة الأبطال فحتَّمت عليّ أن أوقف سير التاريخ، هذه لحظة صنع الأحداث لا انتظارها. لستَ في هذا الكون وحدك أيها القديس تحددُ ما يجوز وما لا يجوز، لست وحدك سيد القرارت، انتظام المدرسة في فترة وجودك ليس معناه أن تنظم أحلام الناس أيضًا، لستَ

النبي المنتظر، لا بد أن يعلم البعض أنهم ليسوا وحدهم في هذا العالم وأن العلاقة التي اكتويت في غزلها لن تُنقض بقرار منك.. جلجلْ يا صوت أبي وأطلق الحمم، انظر لفخري نظرة أخرى فيفنى من كرهتُ وجوده، سأقف أمامه كالحجر، لا بد أن يراني أو أن أحرق عينيه الواثقتين.

ما زلت أذكر ذلك الدرسَ الأخير جيدًا، نقاشنا الناري الذي دخلته مضمرًا وقاحة وغلظة، باحثًا عن سبب لأجعله يسدد فاتورة شقائي. كان يتحدث عن حقبة المماليك، كيف تحولوا من طبقة أرقاء إلى عرش السلطان ثم دحرهم التاريخ حين ظلموا الناس. أيّد سحقهم الغادر في مذبحة القلعة، أزعجني أنه يفخر بأبشع حالات الخسة التي بلغها حاكمٌ في التخلص من خصومه. كان الزملاء مغمورين بالقصة وبحماسته كمن يستمعون إلى نبي، وقفت في صرامة، سألته:

"لماذا تنكر خِسةَ الشعب في التخلي عن هؤلاء العظماء؟".

رد بنبرة مستهينة لكنها رغم ذلك حذرة:

"سؤالك ليس إلا حفنة من المغالطات. ولست أنكر، وليسوا عظماء وليس هذا الشعب خسيسًا".

"أنت تعرف أنك تلوي الأحداث لتطاوع فكرتك".

"وأنت تعرف أنك لست أهلًا لمحاكمة التاريخ".

"ولماذا لا نراجع الأحداث لنستقرئ ذلك التاريخ بعيدًا عن عظمة الشعوب وشوفينية المنشأ".

صمت قليلا، تحرك نحو كرسيه، جلس واضعًا قدمًا فوق قدم ثم قال في هدوء:

"يسرني أن أسمعك".

حدثته عن مجد المماليك، عن حطين وعين جالوت، كانوا معظم الجند، عن مآثر شارع المعز والأسبلة، عما لاقوه في هذا البلد، الأغوات والخصيان، عن المجبوبين في قصور الرجال الذين لم يجدوا الوقت والوقود لإشباع نسائهم، عن المتعة التي منحها الغلمان لعاشقي الغلمان، عن جَلد العَبد الصغير حتى الموت إذا أساء الأدب، وضعه فوق مقلاة، تُنضج النار لحمه شيئًا فشيئًا فيصرخ طالبًا الرحمة وهو يشم شواء جلده، عن عذاب أجيج النار في قلب خصي استوى رجلًا، كل ذنبه أن سيده عنين لا يروي الظمأ.. إن البغال لتسأم من حياتها فترقى الجبال لتنتحر؛ أما هم، فيسلبونك الحياة ثم يطالبونك أن تسير بينهم طيّعًا راضيًا لمجرد أنهم سادوا، أتعلم أن السيادة هي أكثر الأدوات كشفًا لحقارة البشر، حاكمًا كان أو محكومًا، "ألم يرفع الناس هؤلاء المماليك فوق أكتافهم حين دحروا المغول؟ ألم يكن بينهم

عظماء نطق طوب هذي الأرض بصولاتهم؟ ألم يخلطوا أنساب الشعب بعد بقائهم في الحكم مئتي عام؟".

قال:

"المجد للشعب، صانع كل جدوى".

"تضعون المجد حيث يرضى هواكم، تبعًا لمسار التاريخ".

انتتر من كرسيه قائلًا في نبرة احتداد:

"أنت تهرف بما لا تعرف، وتجدّف بلا قضية؟".

"وأنت كأي شوفيني، سجين معتقدك".

صمت مستاءً كأنني أسأت إلى نقاش كان يحرص على إدارته بندّية.

نظرت في عينيه لأول مرة، سدّدت له مقتي، احتدّ من شرر الغضب في عينيّ فواجهني بنظرة أشد شراسة. لو أنه لانَ قليلًا.. لو أقام أي اعتبار لحنقي، لغيظي من قراراته، لربما كنت ارتضيت. لم يكمل النقاش، اعتقلني في منطقة المجهول بلا قيمة. أيدني بعض الزملاء فحكم عليهم بالصمت أيضًا، لم يعد في الفصل صوت سوى صوته. تكلمت كثيرًا بعدها، لكنه لم يعد منتبهًا. هو أيضًا لم يكن يدرك عذاب جفاف حلق الظامئين، تركني أتكلم وأتكلم حتى فرغت. زملائي تحولوا لجثامين في أماكنهم.. كعادتهم حين يجد الجد، في القرية والمدرسة وفي كل أوان، أجدني ساخنًا وهم

فاترون، دائمًا ينتظرون من يتخذ القرارات لهم.. ودائمًا وحدي، أشق طريقي. أكمل الشرح من حيث توقف. ألم يسمعني؟ أبلغَ به الاحتقار ألا يبذل جهدَ هش ذبابة؟ أدركت في تلك اللحظة أن الذي بيننا ليس تحديًا بين طالب آبقٍ ومدرس جائر، أقام جدارًا لا يمكن تخطّيه، كذلك الذي بنته زوجة عمي أمام أبي، جدارًا لا تنهيه رصاصة ولا يهزمه الزمن، صراع سينتهي بالقتل، تخيّل بفوز من سينتهي، القتيل.

لملم أوراقه واستعد للذهاب، خرج الطلاب تباعًا، أجاب سؤالًا هنا وتعليقًا هناك، استوقفني حين مررت أمامه متجهًا للباب.

"كنت أنتظر أن تحدثني عن تاريخ المماليك لا عن خصيانهم ومجبوبيهم".

"متى ستعرف أن الناس يتحدثون كما يروق لهم، لا كما يروق لك؟".

*****

أرسل عم فخري ابنه الأصغر، صفوت، إليَّ. قال إنه، لاعتلال صحته، أوكل كل مهامه لهذا الابن. أوصاني أن أطمئن إليه وأُحَمِّلَ كتفيه بأعتى المهام ولا أبالي. جاء في الوقت المناسب؛ أرسله التاريخ للحسم، ليس سوى آلة حصد، يطيع الأوامر وينفذها بأدق الطرق، دون مجرد الرغبة في

أن يعيها، ليس شرطًا أن تكون منطقية أو ذات ضرورة. كان وجهه شمعيًا أبيض، ريفيًا مختلفًا، ليس وجهًا ساذجًا معجونا بـ"كهن" الفخريين، طموحه بلا حدود، يتشهّى لعابه الدم ويسكب العهر، أنيق مداهن العينين، متربصًا لأي أمر؛ واضح أن النوع الفخري أصبح أشد تطورًا وأنضج خلقة.

لم يكن يظهر كثيرًا في البلد، لكنه كان مُبَجّلًا من الجميع، شديد الأناقة، عجيب الصمت، يكاد لا يشعر به أحد في البلد، يتمتع بطبيعة ساكنة ولا يحب الظهور. شاربه الوسيم الرفيع وشعره المفروق بعناية أضفيا عليه وسامة فوق وسامته، ولزوجة كصمغ العنكبوت، أمين في المعاملات المالية وجدير بالثقة، أمينٌ أيضًا في توزيع مهمات القتل والحرق على أهل البلد، يوزع على الزمرة المهام ولا يظهر إلا في عزاء أو أوقات زيارات الأكابر، الطينة التي سوّته ضبعًا مفترسًا في طاعة أمر شهوته الدموية تجاه الناس، سوّته أيضًا كلبًا أليفًا أمام سادته. كلما حدثني أشعرني أنه يقدم التماسًا وأن استماعي له فضلٌ. يلقاني بوجهه الوسيم الحالم ثم يستدير متوحشًا في الغابة.. وحشية خلف وجه مبتسم. يقولون إن صلة بينه وبين الخط الجديد حدّدت شكل علاقاته مع قريتنا، ينتقي بنفسه البَكارى بغير نزاع وفي سرية

تامة تحفظ كرامة أسرهن أمام الناس، يجد لهن العرسان بعد ذلك، يقوم بكل تكاليف العرس.

عاد إلى أبيه بمكتوب مني طالبته فيه أن يُنهي آلامي، لم أقصُصْ عليه كلَ شيء، كنت أكيدًا أن محجوب أخبره، أرسلت إليه نظرة أبي، أعرف أن استخدام الرصاص يسعده؛ حصد الرؤوس هو المجد الذي بناه أبوه، سيمُنحُ هو صك مجده الآن، بدءًا من مدرس التاريخ.

عندما همَّ بالخروج داهمني خاطرٌ، أحتاج لقرص نسيان، لماذا لم يخطر ببالي استعمال صفوت. هل تراه نسخة "زلومية" من محجوب؟ ماطلته الرحيل، استمهلته قليلًا لاستيفاء بعض الأوراق، استبدلت نغمة الحديث، تحركت أمامه بطريقة خاصة، نظرت في عينيه بابتذال يمحو مركزي:

"صفوت، أتشرب؟".

فهم بالطبع ما أقصد، لا تنقصه الحنكة. كآلة كمبيوتر أو محرك بحث يفهم الكلمات من الأحرف الأولى. عرف نظرة عيني حين نظرت، هذه خاصية مهمة من خواص الجنس الفخري، يعرفون التاريخ كله، كما أعرف أن أباه، الذي يحتفظ بسجل لكل مواطن في القرية، أعطاه بالتأكيد وصفًا تفصيليًا وتمثيليًا لكل شيء.. لحقني بجملة حاسمة حين استدرت، اشتملت الرد ببراعة خبير، يد تجرح بغير أن تدمي.

"كأسٌ سريعٌة، لا بد أن أذهب فورًا".

أُرحب بالرفض كما أرحب بالقبول، كل ما في الأمر أنني كنت متخبطًا أبحث عن أرض أقف عليها. مثل هذا النوع غريب، قد يقايضك بالمتعة ويجلب إليك الثيبات والأبكار، يمكنه أن يرغم من يريد على المجيء إذا أراد، لكن العجيب والمدهش أنه هو نفسه لا يقربهن؛ لعله يخاف أن تنتقص المتعة من كفاءته، ليس يعنيني لو كان عنينًا، لو كان كذلك لأشفقت عليه، ولوجدت له طريقة مُثلى، لكنه "ككلب الصيد يمسك وهو طاو، فريسته ليأكلها سواه"[1].

قلت، رافعًا عنه الحرج:

"نسيت.. لم يعد لدي خمر، أفنيتها كلها في سلوان مأساتي".

*****

1أبو العباس أحمد بن مروان

جاء ذلك اليوم، كانت إدارة المدرسة تعده ليكون بهجة، كان الجو "كرنفاليًا"، كأن حلمًا لم يمت. في هذه المناسبات الكبرى يخزى الجميع من وجودي أساسًا. أتى مدرس التاريخ في عباءة احتفالية. رأيت في عينيه شعورًا بالوحدة رغم كل من حوله، كانوا كغثاء السيل؛ كثرة من القطرات، لكنك لا تستطيع جمعها في كوب. لم يدر أن قلبًا مليئًا بالسم يتوعده، دائمًا يشعر مثل هؤلاء أن مشاعرهم فرضٌ على الجميع مشاركتها، لا يعبأون بالفرد، كأن الناس فانية وهم خالدون.

أخمَدَت رصاصةٌ كبرياءه، أثبتت أن الغمّ يسكن الفرح وأن العذاب في السرور وأن الاحتفالات خؤون، وأنني انتقمت، بدا لي أن كل من بالمدرسة كان يعرف ما سيحدث؛ أحسست أن بعضهم تواطأ بالتغافل وبعضهم بتشجيع العيون، دخل القاتل من بينهم وخرج دون أن تكلَمه امتعاضة.. سمعت ضحكة الخط هناك...

إلى أين؟! لماذا انتفضت بهذا الشكل؟ اهدأ.. حسنًا حسنًا، نستكمل قصتَنا حين تعود من الحمَّام.

14

"قتلوني يا أمي، وأدوا المحبة في دمي، فلترسلي لعنتك عليهم".

ولَّت رأسها عني معرضة، جثوت على ركبتيّ وانفجرت دموعي..

شعرت بدمعة من عينيها تمس رأسي.

*****

15

لم تفلح إسعافات المستشفى في إنقاذه. استقرت الطلقة في الجمجمة. بكاه الجميع بعمق وحرارة. أقاموا له حفلات التأبين كما يليق ببطل. كل ما كان يهمني هو أن نظرة عينيه اختفت إلى الأبد، كل الحضارات الشامخات زالت، يثبت التاريخ ألا بقاء لأحد. فكرت أن أبدي حرارة الفقد، لكنني آثرت الانسحاب والاستماع إلى الموسيقى. للحظة شعرت أن كل من في المدرسة تآمر معي للقضاء عليه...

- لماذا أصبحت عيناك غامضتين هكذا؟ كمن هَدَّهُ التعبُ.

- ...

- أنت الآن تتلعثم في سماع الحكاية.

- ...

- أأصنع لك شيئًا تشربه؟ أأشفقت عليَّ؟ أرأيت كم ظلمتني الحياة؟

- ...

- عيناك ممتلئتان بالدموع منذ عدت من الحمَّام، أنا أيضًا مستاء لأنه مات، ولكنك رأيت.

*****

حاولت الاتصال بصاحبي الشاعر، لكنه سدّ جميع السبل. ذهبت إلى بيته متلصصًا وراقبته عن بعد. رأيته ذاهبًا إلى المسجد، تحول إلى شخص آخر، نَمَت لحيتُه، أصبحت خطواته أسرع، يبدو أنه لم يعد يكتب شعرًا؛ لا يمكن أن يكتب الشعر شخص يسير بهذه الجدية. لفترة كنت أذهب لانتظاره في مواقيت الصلاة، رآني ذات مرة فاستدار عائدًا إلى منزله، لم يكمل طريقه نحو المسجد. بدا عازمًا على تنفيذ قراره، وددت أن أعده أنني سأحفظ السر أكثر، أن الطريق قد خلا من الكدرة الكبرى، لكنه كان أحمق، كنت أدري أنه يدعي نسياني، في هروب عينيه اشتهاء، في فراره نداء، زهدته حين أنكرني واللقاء متاح. قررت بعده ألا أنخرط في عشق جديد. لا شيء أدعى للترخص من شتات النفس، ولا نعمة توازي جمعها.

*****

ما أكثر الأشياء التي تحيّرك إزاء تصنيف التاريخ للأبطال؟ التاريخ يحول أبطاله إلى نسخ تم تصميمها تبعًا لقواعد لا إنسانية، يتسمون بالكياسة دائمًا، ليسوا بشرًا، هم فقط عظماء، لا يخرجون يومًا عن أُطرِ العظمة، لا يتناقضون مع صفات البطولة. ألا تعتقد أن نابليون مثلًا كان يخون زوجته في كل تلك المستعمرات وسنوات الحروب؟ وأن بوذا كان يبول في الصحراء؟ أتعرف أن غاندي الذي ناضل الإنجليز بحكمته وصبره

وخرقتين، قال إنه يحب أمه البقرة عن أمه الحقيقية؛ لأن البقرة لم تتوقف عن إطعامه بعد عامين. تعجبني قصة الملكين ببابل هاروت وماروت، خرجا من أسر طهارتهما ليقتحما لذة إنسانية. ذكرنا محمد علي، قاتل المماليك غيلة، أتعرف أنه لم يكن يتكلم العربية؟ أتعرف أنه كان طاغية يلقي من يعارضه للتماسيح؟

كل هذه المعلومات بلا فائدة، أحاول تخفيف اضطرابك الأخير. ماذا كنت أقول؟ كنت أحاول أن أستعيد انتباهك...

لعل هذه هي فكرة شقائي بينهم، تقسيم الناس إلى شريف وفاجر، صنفان معزولان، كأن هذا لا تنحط نفسه وذاك لا تسمو روحه. صدقني لقد رأيت بين الناس ملائكة يتحولون حين يأمنونَ الأنظار إلى شياطين، ورأيت أوباشًا يتعففون ويأبون الدنية. وكم خسيس في شملة قديس، وكم... لن تستدرجني المترادفات والاستطرادات، الشاهد أني، أنا أنا، في الخفاء وفي العلن، فمن الذي يستحق اللوم؟ أحدثك بلا ميزان، مات محمد علي مجنونًا على أية حال، أما أنا.. فمتعب جدًّا.

كم كانت تحدوني الرغبة أن أخالف ترتيب البدايات والنهايات وأمشي عكس الطرق، آكل بيسراي ولست بأعسرٍ، أذهبُ للأماكن من طرق خلفية، أنام طيلة النهار وأصيد طُعمتي في بهيم الليل، لكم أنظف مؤخرتي

قبل أن أتغوط، أتقنت الكتابة من الشمال إلى اليمين، خالفت النهايات والبدايات، خلطت المقدس بالوثني، بُلت على المصحف والإنجيل.

*****

في نهار شاتٍ، قالوا إن امرأة تسأل عني. خرجت من فصلي دَهِشًا، أية امرأة؟ كانت تنتظرني بحوش المدرسة، لماذا الحوش؟ لماذا ليست حجرة الناظر كما اعتاد أولياء الأمور؟ كانت متشحة بسواد، هيئتها على البعد تناسب ضمور نور الشمس في ذاك اليوم الغائم، اقتربت منها، لم أستبن ملامحها لكنني استبنت حبوري كلما اقتربت، أي ريح طيبة أرسلت ذات القلب الأبي حامل الضيم من غير شكاة؟ كانت هي، المدهشة التي اكتفت باللا شيء فشبعت وأشبعت أبناءها، واستولى غيرُها على كل شيء فتشرذم سربه وانكشف عرضه. كانت هي، زوجة عمي، البهية في الغياب وفي الحضور. اقتربتُ فاستدارتْ، صلبة العينين كعهدي بها، بششت لها لكنها عصت بشاشتي. لم تستثنني نظرتها هذه المرة، تلك النظرة القديمة التي خصَّت بها فخري، تقزّمت نفسي، انكمشت بهجتي، تمنيت أن تبتلعني الأرض. لم يكن عسيرًا عليّ أن أفهم لماذا اختارت الفِناء؛ لم تكن تريد لأحد أن يسمع ما سيدور بيننا. لم ينل منها الزمان ما نال من غيرها، مات أبي

وذبلت أمي وتبدل كل شيء، أما هي فقد ظلت كما هي، مديدة بعيدة وقور المحيا.. قالت بأحرف كالرصاص:

"كان نفسي انتقام ربنا ميجيش فيك".

لم أجد ما أقول، لو كان الكُفرُ بكل ما أعتنق كافيًا لرضاها لفعلت. لم تأت لتغفر. روح المدرس هي التي أخبرتها بالتأكيد، فتّشت روحه في الوجود فلم تجد أشد منها جدارة بتعذيبي. شعرت بالخجل للمرة الأولى؛ واجهت فجأة كل مخاوفي، أكثر من كنت أتحرى الخفاء منه.. عدت لأكل شفاهي وزلزلة جسدي. لم يكن ممكنًا أن أنظر إليها أو أشعر بالجسارة التي أشعر بها وأنا أتحدث إليك. ألا تمر عليك لحظات تنكر فيها يقينًا آمنت به من أجل عزيز؟ ماذا لو عرفت هذه السيدة أن يدي هاتين سوف تدفنان جسدًا لم يَخطُ نحو الخطيئة بقدم، روحًا أطهر من أرواح الملائكة؟

"خد اللي حيلتي روخر، خد عمري زي أبوك ما خد عمر عابد، بس قل لي إن اللي باسمعه كدب".

لم أجد ما أقول..

"تنكفي على وشك يا بن فايق؟".

فهمت الآن لماذا كان أبي يتضاءل أمام هذه المرأة، خجلت من حياتي ومما أنا عليه لأول مرة، لا لشيء إلا لأنه يُغضبها. لم أغضب مما أقدَمَت هي

عليه بعد ذلك، بصَقَتْ على وجهي، بصقة كبيرة، مادت بي الأرض، أخذ كل ما في الكون يتباعد، شعرت أنني في صحراء شاسعة مشمسة لا أمل فيها في صحبة ورفقه، ذهبت نفسي شعاعًا، استدارت بغير كلمة أخرى ومضت، كان ظلها على الأرض كبيرًا وحجمها لا يصغر مهما ابتعدت.

بقيت في فراغ الكون أدور، معلقًا بين الوجود والعدم. تجشَّمتْ هذه السنديانة العجوز طريقًا يصعب على المرء تصوره حتى وصلت إلى هذا المكان. ياالحرقة بصقتها.

"ما دام الدم يفور ويغلي فإنك ما زالت حرًا"، تلك حكمة سمعتها عابرة في زمن ما، من رجلٍ تاهت ملامحه، لعله كان يقصدني رغم أنه كان يحدث صاحبه ولم أكن سوى شخص عابر..

"فايأس فأنت الآن وحدك، أنت في البلوى يتيم. فايأس، أبعد الصمت ثمة من رجاء؟"[1].

نجيب سرور لزوم ما يلزم 1

16

صرت أجوفًا. اعتزلت الحياة فترة طويلة. لم يعد يربطني بالعالم غير حاجات طفيفة تافهة الأثر، الطعام والشراب. القتل فوهة فارغة قادرة على امتصاص حياة القاتل أيضًا.. كان جديرًا بهذا المدرس أن يبقى ويرحل التافهون، لقد أفرغت حياتي من أثمن ما فيها. يقولون إن لديه أسرة، زوجة وطفلًا في أول الصبا، لعله فتى شامخ مثلك الآن.

*****

صمتت قريتنا عن أفعال الخُط. تغافل الناس عمّا كان يصلهم من أخبار جبروته وبطشه بآل النابلسي. ظهرت نغمة جديدة على ألسنة الناس، "لماذا لا يقبل أهل النجع الوضع كما هو؟"، "هم الذين يستفزونه". تدرج هذا القول حتى سأل بعضهم: "وهل تموت البنات إذا افتُضِضن؟". أما أمثلهم طريقة فيتمعر وجهُه قليلًا ثم ينسى الأمر. لم يعد اكتشاف العرسان أن معظم العرائس يبدأن مراسم زواجهن باحتقار بالغ للرجال أمرًا مثيرًا للغضب، كانت الأمور تمر، الليل ستَّار والعادة تقتل كل شيء. وصفوت ابن عم فخري يحضر النزاعات كلها، إن قامت نزاعات، ويقضي على غضب

الرجال بحفنة من المال أو بالعين المهددة، وجوده كان فارقًا في طبع أهل القرية؛ صبغهم بلزاجته وهدوئه. أهل قريتنا يعشقون الأمان منذ عرفتهم، حتى أنا، رضخت حين بلغني ذلك الخبر العجيب في هذه العزلة النائية. تزوجت أمي من صفوت، ظل ذلك لغزًا لم أفهمه، أيُّهما أخضع الآخر؟ يقولون إنها عادت زاهرة الشباب، بارك عم فخري الزيجة وأرسل في طلب حضوري، لكنني لم أكترث. ستتخلص بندقية صفوت العامرة بالذخيرة من بعض الطلقات، سيتناول كؤوس الخمر المعتقة بلا حساب.

أما محجوب، ملتقم ثدي المعيز، فقد صار أكبر حلّابي القرية وأمهرهم في "تحنين" البهائم. تولَّت أمره سيدة ثرية. عاتبتها النسوة محبات العهر الخافي في القرية، لا على الانبطاح لناكح البهائم، بل على الارتباط المشهر بفارغ العقل هذا، ردّت عليهن:

"إن فارغ العقل هذا، هو الذي منحها الامتلاء وفزع العروق".

افتتحت له مصنعًا لتعليب بول الإبل، أقبل أهل القرية على بضاعته، أشاعوا أنها تشفي الكبد وتعيد نضارة الشباب، راجت تجارته. كان يمنح زبائنه تجربة مباشرة من سطل أسفل الجمل، يمنح من يريد كوبًا مجانيًا ثم يتعجب من نضرة الشباب والعافية التي دبت فورًا في جسده، بدليل ذلك الامتعاض على الملامح. بعض الفلاحين كانوا يضحكون ضحكة عريضة

بلهاء بمجرد إفراغ الكوب في معدتهم، بعضهم كان يقبل عليه لمجرد أنه مشروب مجاني. بعد موت المدرس كانت مثل هذه العجائب تملأ البلد، ليس أعجبها زواج محجوب من السيدة الثرية، رغم أنها تكبره بعشرين عامًا، بل إن غنج النساء لم يكن يلهبه كخوار السَّوام واستكانة الأبقار.

لم ألتحق بالجامعة إلا بعد عامين من الفراغ والبعد عن كل الناس. في عزلتي التهمت المكتبة، حياة بديلة لكنها أكثر نبضًا، عرفت رامبو وسمعت صرخة جان جينيه الجريئة للعالم أنه شاذ ولقيط ولص. حاذر، لم يصرخ لكي يلقوا القبض عليه أو ليُعيّره الناس ويدينه دعاة العادة، بل ليواجههم مُصرحًا بحقيقة ذاته. الاختلاف موجود ما وُجدَ البشر، لا تستدِّر العطف بحقيقتك، ازهُ باختلافك...

ذهبتَ بعيدًا أنت بعد عهد الثانوية، كأنما انقّضت حاجتك، تنتظر الليل أن ينقضي. أعرف أنك نافر مني، لي خبرة تجعلني أعرف القبول والنفور. يخاف أمثالك الخروج قبيل انقضاء الليل، خشية أن يلمحهم أحد. اِبقَ معي لأستكمل الحكيَ، أريد أن أبوح بباقي قصتي، شيءٌ يدق في قلبي كأنه الخلاص. كأنما الأيام تستقر في نهاية الطريق، كاهلي ناء بهذه الأثقال يا صديق، سنطلب طعامًا وخمرًا، ما زلت أحسب أني سأعرف كيف أُذيب الجليد...

لماذا لم أفكر بالزواج؟ سؤال لم يرِد إلى ذهني. إلى أين تصير كل هذه الثروة؟ أتراني إن كان لي ولد سأتركه يخوض نفس التجربة؟ أتراني كنت أسمح له بكل هذه المشاكسات؟ لا بد أن الدماء التي أرقتها أقذرت المسار وأتلفت القلب. قلبي مثقل بقتلة أخرى. سأبوح سأبوح، صرت مخلوقًا هائمًا بين الهذي والتيه؛ أنت لا تصبح أنت حين تذوق الدم. ليس معنى ذلك أنني ما كنت أفعل ما فعلت لو عاد الزمان. انتبه، هذه الأفكار الأخلاقية ليست ما يعتريني الآن، لكن دكاني فارغٌ، لم أعد ذا بضاعة تُشتهى، والروح غارقة بما لا تَشتهي، لم تعد اللذات كما كانت، لم يعد قضاءُ المتعة نابعًا من رغبة حقيقية، ليس أداؤها عن لذة، مجرد تزجية للوقت، شيء ما فُقد بالتأكيد، وقع شيء ما هناك.. في القبر مع "أنس"، في المدرسة حين انتهى المدرس، حين تصير شيخًا بلا أنيس ولا جهد ولا أمل، لا شيء يجثم فوق رغبتك في الحياة مثل جرائمك السابقة.. الخيل صارت عاجزة عن جرِّ الحافلة، البضاعة صارت مقززة يعافها المشترون ولا ينظر إليها العابرون.

17

"لا عليك، أعد المساطر واضبط كفتي الميزان".

عودة خاطفة إلى القرية. كان لا بد من عمل يعدل كفتي ميزان التاريخ. نعم.. كما يُعدِّلُ التاريخُ أوضاعه دائمًا، أو يجلس أحدهم فيقرر ما سيحدث، هكذا بكل بساطة انتهت مباريات وأُبيدت شعوب.

لا بد أن روحها أيضًا ما زالت معذبة...

دهمتني رائحة المكان القديم، بداية المسار واللذة المموهة بالاغتصاب، البحيرة والجنية، دَفُّ الطيور في جنة أبي، عبق البرسيم وصولجان الملك، خبُ الحصان وأنا أحيط بذراعي ظهر أبي؟ عدت غريبًا. رحلة خاطفة. أجدى بها أن تظل خافية. لقاء الشيطان واستعادة الجسد المعلق فوق الجنش، تهدئة الجسد المتأرجح أمام كل التلاميذ، الحضن الذي استحال كيانًا ثلجيًا باردًا، "لا تقربوها، فليخرج التلاميذ فورًا". هرج شديد وجدار من الأجساد يحول بيني وبينها. تبادلتها الأيادي كشوال محصول جمعه من لا يعرف له قيمة، هل من نظرة أخيرة! هل من حضن؟ لا. واخضلت لحية عم عبده حتى أغرقت قبره.

توجهتُ نحو سيارته عمدًا بخطو مثير. انتقاني حين انتقيته، أوحالُ أرواحنا شابهتنا فتعارفنا، أناقة الغريب مغرية. ركبت، وجهه ليس محل اختلاط على الباحث. جلست بجواره. لم أنظر إليه، طالبته بالمرور في الشارع "البراني" الموحش منذ أيام الابتدائية. السيارة بالية صدئة مليئة بالأتربة، قذرة كما يليق بخنزير يأكل روثه. بطيئة كالملل، تئز رغم ذلك كأنها دبابة تتعثر فوق جنزيرها. طاوعت اهتزازها مستمهلًا الطريق بحثًا عن بداية. ملت بوجهي لأنظر كيف رأته. ندبته البنية الغائرة وسمت وجهه كله بالقذارة تحت العرق والتراب والرطوبة. تحدث فبرز صوته الأجش الخارج من بين أسنان مهترئة صفراء، أهذه الأسنان لاكت التفاحة النضرة؟

كان باليًا قذرًا، يدخن بشراهة، يتوقف كل شيء حين يسحب نفسًا من سيجارته، يهبه كل تركيزه وتنام عيناه الضيقتان لتنظر شفتيه لحظة سحب النفس ولحظة خروج الدخان. امتلأ بالظن أنه اقتنص صيدًا ثمينًا، يبتسم كزحف الثعبان، ظن الذي أكل الزغاليل أن أنثى العنكبوت فريسة جديدة، دلف إلى الشَرك وهو يظن أنه الصائد، كان صيده أهون من بصق بلغم يلوكه الفمُ.

مددت يدي نحو فخذه مباشرة، تسللت في هدوء، لم يهتز ولم يجفل، بدا راسخًا في خسّته ووحشيّته، بليدًا كما يليق بمغتصبٍ أسود الأسنان. خفت

أن تبوخ المفاجأة ويهترئ الشَرك. مضى في سيره كأنني لست معه، الجو حار خانق واللحظة فقدت دهشتها، سينتهي كل شيء إن لم تبدأ المساومة. الطريق يعج بالسيارات والمارة؛ سنضيع كذبابتين في قيظ النهار. لممت أصابعي في يأس، لكنه أطلق طوق النجاة؛ كان أكثر مني صبرًا حتى استوى الطريق واستقام سير السيارة، لا بد لهذه السيارات العتيقة من فترة تسخين مناسبة، سألني بوقاحة خبير:

"من سيدفع؟ الراكب أم المركوب؟".

فتح باب التفاوض وأعاد الأمل، أخرجت حافظة نقودي المكتنزة، نظر بطرف عينيه مقسِّمًا بصره بينها وبين الطريق في شهوة ظافرة، أعدت حافظتي لجيبي وقلت في هدوء:

"كل ما عليك أن تحسن الركوب".

اطمأنت عيناه ولاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة مصحوبة بزفير مستهين. توجّه بالسيارة في هدوء إلى أحد الأكنان التي يعرفها جيدًا، لا بد أنه نفس المكان الممتلئ ببذر التفاح، أرخيت جسدي وأغمضت عينيَ. شعرت أننا نمضي بالشاحنة في سحاب أسود. توقف في مكان قفر، أشار بالنزول، خرائب وتراب، عزلة عن كل ما هو نبيل وحي، يعرف المكان جيدًا، ألف المكان ويألفه، خطواته محترفة، كهف أسفل الطريق، وهدة

بائسة تؤدي إلى فجوة أشد بؤسًا، ليست سرًا، لكن لا يكشفها إلا من أراد الخلاء والخطر. كان المكان كله مرادفًا للخسة والقذارة، رائحة البول تزكم الأنف، روث الكلاب متكوّم في كل الأركان، جابت عيناي المكان بحثًا عن شيء تبقى من أثر الحبيبة اللطيفة، لكن العهد قديم. أهنا تناوبوا على الوردة الشهية؟ أهنا هجم الجراد على الخميلة؟

استشعرتُ رائحة حضنها، لفحتني أنفاسها، استيقظت عيناها تستحثني أن أنقذ روحها التي ما زالت هائمة تتعذب، تدلت قدماها وهي ترجو أن يكون الموت أجدر من الحياة...

باغتني صوته الأجش في صوت أشبه بالتهديد، طالبني بإخراج محفظتي، ابتسمت في لا مبالاة هادئة. سارت خطتي وفق ما أردت تمامًا. استمتعت بلمس خصلات شعري لجبيني بينما أعطيه ظهري. كانت خصلات شعري المنسدلة على جبيني طويلة ومجدولة تناسب الضوء الغروبي القاتم. انشغل بنفسه. تبول في أحد الأركان، سمعت صوت خيط الماء المصنن. المكان كله يعج بالقاذورات ويضج برائحة الغائط، لكنه كان متوافقًا ومتسقًا مع اللوحة الكاملة، كأن الجحيم انتقلت بأبرز شخوصها إلى هذا الجحر المنسي من العالم. استللت مديتي متظاهرًا أني أخلع ملابسي، نظرت في المكان مبتسمًا كأنني أطير. على مهل أغمضت عينيّ، ثم فتحتهما

عن نظرة واسعة أظنها مرعبة. استنشقت نفسًا عميقًا، احتضنتها فأغمضت عينيها، احتضنتني شاكرة وروحها تتحول إلى شعاع نوراني يزوي نحو ملجئه الأخير. وقبل أن تتحول إلى سراب، سددت نظرة جمعت فيها كل معاني التشجيع والبغضاء، ثم ذابت هربًا من قسوة اللحظة التالية...

رأيتني كمار، يناهض الحريق وينقذ الجياد. التقط الرمح المنغرس في قلبه بيديه وردَّه في نحور المغول. خرجت الجياد مسرعة، اطمأن لخروجها كلها، امتطى أمضاها وتوجه نحو القصر، بارَزَ كلَ من قابله من الجنود، علاهم أجمعين، كان رشيقًا حرًا، عزفَت له الريح لحنًا من بلاده أشجاه حين كان طفلًا. ألقى رمحه السحري في ظهور مغتصبي الإماء، كلما ثقب ظهر أحدهم عاد سحريًا إلى يديه. حرّر العبيد والجواري. اتجه نحو الأباطرة الكبار، ذلّت عينا هولاكو بعد أن كانت عيني طاغية، جثا منسوف الكبرياء، خسئ الوزير مؤيد الدين وجثا على ركبتيه طالبًا الرحمة بجوار هولاكو. أما الذليل ابتداءً، الخليفة المنكوس، فقد كان جثوه أقرب للدفن تحت بلاط القصر. التقط كمار سيفًا، ألقاه عم عبده في يديه، مدَّه تحت ذقونهم، رفعوا رقابهم صاغرين، حصدها واحدة بعد أخرى فعادت الحياة إلى أبناء أشرف الحدَّاد، انطلقوا يمرحون فأصبح المكان مليئًا بصدى ضحكاتهم، ثم فارغًا من كل صوت، ثم ساد صوت التلاميذ يحيّون العلم

في الصباح ومدرسة التدبير صابحة الوجه باسمة بلا اكتئاب. نظر حوله باحثًا عن شيرين. تلفتت عيناه في جنون يحدوه أمل، لكنه لم يجد سوى الوحدة، سكتت الموسيقى الصادحة، سقط على ركبتيه صارخًا باسمها، لم تسمعه، لأنها لم تكن هناك. حزنها الشديد عند الموت منعها الظهور في اللحظة الساحرة. ماتت ناقمة على كل لحظة في الحياة فاستحالت العودة حتى في الأحلام، أبت روحها الرجوع؛ حتى الأحلام تعجز أمام طريقة موتها. جابت عيناه المكان والزمان فلم تعثرا عليها، سحر الأساطير لم يستطع جلبها من العدم. انكسر قلبه حين أيقن أنها لم تعد تنتمي إليه، صرخ عاليًا جدًّا، تناثرت أشلاؤه...

خلع بنطاله، مد يديه ليلمسني. استدرت مكملًا صرخة كمار، سددت مديتي، غرزتها بعمق ثم حفرت طريقًا أفقيًا في رقبته، تمامًا في رقبته، حيث شنقت نفسها. استمتعت برؤية الدم يندفع كالنافورة ثم سددت طعنات كثيرة متتالية، تعمدت أن تكون في أنحاء غير مميتة. وجدتني مع كل طعنة أردد من دون أن أشعر "سيلي غا، سيلي غا"...

سقط يشهق ويخور. اختلطت دماؤه ببوله، وضع يديه على رقبته وما زالت عيناه ذاهلتين تسأل، أيقتلني "الخول؟"، أخذ يخور ويرفس كالثور المنحور. مددت يدي إلى جيب بنطاله الملقي بين العفن، أخذت محفظتي

وعلبة سجائره، بصقت عليه ثم تركته في هدوء مستكملًا عزف النهايات، منتشيًا بانتفاضاته المتتالية...

استقرت قدماها، نام الأطفال في سلام ومدّ عم عم عبده يديه بوجه مشرق وبادلني التهنئة...

خرجت من جحر الوغد منتشيًا ملطخًا بالدماء. عدت ماشيًا، استمتعت بدخانه الفقير، أنهيت أكثر من نصف العلبة في الطريق. مشيت في وضح النهار قاتلًا فخورًا بشخصي. لم أشعر بجوع ولا بعطش رغم مرور الساعات والقيظ الشديد؛ كانت روحي شبعَى، شعرت بروحها تتقافز حولي وتمسح آثار الدماء والتراب عن قميصي، طعم حضنها الجميل، عطرها الطيب المرادف للحنان، كلماتها المشجعة، أخذت الرشيقة ترقص الرقصة الأخيرة لها قبل أن تستقر روحها في النعيم، إن كان هناك نعيم.

المسافة طويلة من ذلك الكهف القذر حتى المحطة، لم أشعر بمرور الوقت لكن الطريق كله كان قفرًا خاليًا من الناس والحياة، كأن الوغد شقَّ هذا الطريق من أجل صيده فقط.

وفجأة، ألقى التاريخ صنجًا متكتلًا ليوازن كفة بكفة. استوقفتني قدمٌ تدب الأرض بقسوة، شعرت قبل أن أستبين الأمر بالخطر. رفعت عيني فوجدت رأسًا كبيرًا فوق كتفين مكتنزين وعينين ممتلئتين صرامة ونشوة

ظفر. وجوه برائحة الغل وشراسة الانتقام، إنه هو، "عزيز" وحوله حفنة من الرجال مختلفي الأعمار والأحجام، زمرة صغيرة يبدو أنها تكونت منذ لقائنا الأخير.

"ستخلع البنطلون هذه المرة".

لم تكن هناك فرصة لتبادل الكلام، انهال عليَّ أتباعه ركلًا وضربًا، أدهشني أنه لم يكن هناك صوت. تبادلوني ركلًا ولكمًا، قبضاتهم صارمة بلا رحمة، أحسست بسخونة الدماء، شعرت بالتطهر والخلاص والألم والسعادة، قررت استكمال رقصة الموت مع عزيز. اختلطت دمائي بدماء الوغد الذي أدميته منذ قليل. امتدت يدٌ نحو حزامي، البنطال انسحب، عطلّهم الحذاء فخلعوه بقسوة، ارتج كل جسدي معه "ما زلت رخيصًا يا عزيز"، لم أدر، أيسحبون ملابسي أم تسحب ملائكة الجحيم روحي؟ سمعت صوت التقاء الحذاء بالأرض في مكان بعيد، قطع أحدهم القميص وخلعني منه بكل ضراوة، شعرت بهفيف الهواء، تركوني باللباس ومضوا.

*****

"هذا جريح آخر".

"سرقوا ملابسه".

"ولماذا لم يسرقوا ملابس هذا أيضًا".

"بذمتك، أهذه ملابس تُسرق؟".

"لعل مجنونًا كان يمضي بسكينه ويضرب الناس".

"ألم أقل لكم، إنه شبح أشرف الحداد، يجول بالسكين بحثًا عن صديقه".

"ضعوه بجانبه".

"ليس بجانبه مكان".

"ليعد أحدكم إلى الخلف، في صندوق الشاحنة. لا يُعقل أن نضع جريحًا وقتيلًا في الخلف وأنتما هنا تجلسان".

شعرت بأياد تحملني، انزلَقَت بين دمائي وعرقي، وضعوني في الكنبة الخلفية بجوار جسد لزج. كانت الدماء تملأ الكنبة ولم تزل بعد ساخنة، لم أكن قادرًا على فتح عيني، لم أكن قادرًا ولم أكن مستعدًا للأسئلة، عُريي لم يصبني بالحرج قط. تبرع أحدهم فكساني جلابية جلبها من شنطة تحت قدميه. شممت بجواري رائحة عرفتها وألفتها منذ قليل، صنان وعرق

قذر. لمست يدين لزجتين بجواري، كان هو، الوغد، اجتمعنا مرة أخرى. واتجهت السيارة نحو المستشفى العام.

"انظر، أظنه يبتسم".

"أمجنون أنت؟ إنه ميت. كلاهما ميت".

"رائحتهما قذرة، هل تعفنا؟".

ألقونا في المستشفى العام على سريرين متجاورين. أفقت ولم يفق رفيق غرفة الطوارئ. كيف توصلوا إليه في الكهف. أكانت به حياة قبل أن أتركه؟ جمعٌ من الأطباء والممرضات حوله، علّقوا المحاليل وضغطوا أماكن النزيف لوقفه. خاط الطبيب جرحًا غائرًا تحت عيني، ضمد رأسي وذراعي، سألني بعض الأسئلة ثم سمح لي بالانصراف. قبل أن أنصرف، قابلت أحد الذين أقلوني بسيارتهم، عرفت صوته، بادرني مبتسمًا.

- الحمد لله على سلامتك.
- ماذا عنه؟
- لا عليك، يستحق كل شيء.

لم أتحرك قبل أن يفيق، انتظرته حتى رآني، لم يكن قادرًا على الكلام ولا الإشارة، لم يكن بينه وبين الموت إلا هذه النظرة الأخيرة التي وجهها لي.

أسعدني أنني أرسلته للجحيم بهذه النظرة الحانقة البائسة، لم يكن قادرًا حتى على تحميلها بالغيظ. قال أحد الذين كانوا بالسيارة بلهجة فاترة:

- لا إله إلا الله، الدوام لله.
- مات؟
- نعم، خذ هذه النقود، ستعينك حتى تصل إلى بيتك، احتفظ بالجلابية.

ابتسمت للسائق الطيب، سألته عنه فقال:

- سائق مثلنا، لكن الكلاب تئن من نذالته، نال ما يستحق.

18

كلهم يعبرون بلا أثر. وددت أن أقابل أحدًا مثلي. القمة والقاع ممتلئان. في فترة ما، انضممت إلى مجموعة ممن يمارسون ما أمارس. كانوا يتنادون بأسماء إناث، رفضت ذلك بشدة. يرتدون الغرائب، رفضت ذلك أيضًا، لولا ما أتمتع به من ثروة للفظوني لكثرة ما أرفض من تقاليدهم. لا أرقص بتلك الطريقة ولا أتحدث بليونة، شعرت للمرة الأولى أننا شواذ، لحظة انفلات بلا كرامة.. يدعوننا في الحفلات لاتخاذنا ديكور. تعشقنا الساقطات، يرين أنهن لسن في نهاية القاع، يحاولن تجربتنا، بعضنا يفلح والبعض لا تستهويه اللعبة. كنت أدسّ نفسي بينهم أحيانًا، ننسى القالب ونتعامل بالحقيقة التي نحبها، نصرخ ماجنين، نصبح أيقونة الحفلات، ينظرون إلينا كمسوخ شائهة. يُمتع اختلافنا أولئك الذين أعيتهم النمطية فصاروا جثامين هامدة تفتقد الجنون. عندما يحين الانفراد بسادة الحفلات يتضح كمُّ الاحتقار، نصير معروضات في سوق النخاسة. لم يستهوني الأمر في النهاية.

حاصرني الفراغ، إن كان على وجه الأرض بقعة فارغة بمساحة مثلث برمودا فهي قلبي، رغم كل ما ابتلع من سفن، وطائرات وغوامض لا يتسع الذهن لذكرها. يلج الفراغ والعدم قلبك فيصبح كل ما حولك سجنًا من الملل. كل العلاقات عابرة تنتهي بلحظة اشمئزاز. بعضهم كان يبكي، كثيرون كان يحلو لهم أن يركلوني بكل إهانة، كان يحلو لي أن أرقد مكسورًا كطير مهيض الجناح، يروقني شعورهم الزائف بالانتصار على آثامهم..

في الجامعة، حاولت أن أكتشف طريقًا للبهجة، كنت واضحًا منذ اللحظة الأولى. اتخذت خطوًا واضحًا وطريقة كلام واضحة وملابس واضحة؛ طبّقت بعضًا مما تعلمته من رفاق الحفلات. تأثرت من دون أن أدري بصحبة أمثالي، اعتمدت على ثرائي الفاحش. كنت حالة مدهشة وواضحة. دعوني في حفلاتهم، المجد للجامعيين.. قبلوني كما أنا وتحدثوا إليَّ بمساواة، عن المحاضرات والرحلات والأبحاث، وكثيرون منهم كانوا ينظرون إليَّ، تلك النظرة التي أعرفها فأترك كل شيء وأتبع صاحبها؟ ألقم الطعم، لأمثالنا نظرة تفوت كل الحاضرين ليلتقطها صاحبها فقط...

ورأيت ياسر، تلك النظرة، آهٍ لها. انتهت الأمور إليه كضرورة فرضتها الحاجة إلى من يقود الأحداث. ذهبت إليه كالمنَّوم، أشركني في ضحكه واحتواني في مزاحه الآسر. أخضر العينين ذو لثغة محببة، ماكر وحاذق،

كبير الكف كمخترعي القديم، يكذب كما يتنفس، يسلبك مالك وأنت تضحك، أفَّاق لطيف، كل علاقاته في الدنيا عابرة، لا تنتظر أن يتحقق شيئًا؛ فوعده "عند منقطع السحاب".

أجاد تمثيل الحكمة رغم أنه أجوف، حافظ على كل خيوط علاقاته رغم أنه أحيانًا كان ينسى أكاذيبه. شره في كل شهوة تقابله، حتى لو كانت بقايا مشروب في يد زميل. كان الجنون في خسته محببًا إلى قلبي وجسدي. كثيرًا ما نهرته بكل قسوة وقطعت ما بيني وبينه فأجده في الليل متوسلًا على باب شقتي تلك. وكثيرًا ما زحفت بين قدميه كالكلب فعاملني كخرقة بالية. كثيرًا ما سمح لنفسه أن يتدخل في أدق التفاصيل، حتى الخاصة بممتلكاتي التي ورثتها عن أبي، وللحق، قدراته العملية كانت مثار إعجاب الجميع. أتعرف أين بلغ بي العشق؟ كنت أتجسس عليه في الحمّام.. عشقت خرير بوله.

كلهم كانوا يعلمون نزقه، ويعلمون أن فتاة مفتونة به لدرجة العبادة، تحاول أن تلملم عشاقه خلفه وتزمجر، تخمش كقطة برية وجه من يقربه. ما كانت لتقبل أن تدعني وإياه، ما كنت لأسمح للصراع بيننا أن يحتدم؛ لم أكن أريد أن أستخدم زمرتي مرة أخرى، أسميتها عزيز، الفتاة عزيز. هي أيضًا لم تفهم اختلافي، كانت سوقية النزاع، لم تستوعب أننا لا نتقاسم ياسر، بل

نتعاون لنكشف له البهجة، لست منافسًا لك يا قطة برية، لكنك تافهة العشق تسيئين الامتلاك.

كان ذكيًّا في المداراة، لبقًا في الحديث، متوزعًا على المجموعة كلها. يكذب على كل واحد كذبته الخاصة. كلما تلفّت في جانب كذب وغمز. كل كلماته وتحركاته تصب في صالحه فقط. قدرته على اختلاق المعاذير والأكاذيب مبهرة. فإذا انكشف، حوَّل الأمر كله إلى مزحة، كان ذكيًا في فهم المكائد. تلك المسكينة كانت تنتظر تجدُّ في الوصول إلى السراب لاهثةً.

حدثني ذات مرة أنهم يدبرون لي مؤامرة في الخفاء، إحداهن ستحاول تجربتي، "عاهر الجامعة"، كما كانت تباهي. لولا أنها كانت تتقاضى أجرًا، لرفضتُ لها هذا الاسم.

اتخذتُ الاحتياطَات اللازمة، انتظرتها كأنثى العنكبوت حين امتصت الثعبان، أعجبني التحدي فقررت خوضه.. طالبتني بنقل إحدى محاضرات الجاذبية بين نيوتن والحسن بن أحمد الهمداني وشرحها.

تناولنا العشاء في هذه الشقة. على نفس هذا المقعد جلست، أعجبتها هذه اللوحة، ذلك الخط النوراني الساطع الذي يثقب الظلام كالسيف، ذلك الألم اللذيذ على وجه السلطان الجالس، امتزاج الألوان بلا اتزان وروعة التلاحم. ثم انتقلنا إلى تلك الحجرة، كنت مبهرًا رغم غرابة ما

طالبتها به. طفت بها بلادًا لم تسمع بها، عزفت لحنًا متدرج النغم، رقصت كالبدائيين حول نور الشموع الخافت. صعدت بها الجبال ثم قفزنا من شاهق، التقينا الأشجار وشلالات المياه والصخور والأشواك. جادت بالقرب والوصال، عزَفت موسيقاها الناعمة والصاخبة، تصاعد اللحنان في نشوة الإيقاع، ائتلفت النغمات في صخب ولين، شربت حواسنا الموسيقى رشفًا وغبًا، عدونا في مروج الغاب، لم نعبأ بخمش الشوك أجسادنا. انصهرنا فلم نعد نعرف أينّا أين. يا صاحبي، كل شيء على هذه الأرض فيه متعة وشقاء، إلا أثداء النساء، متعة خالصة.

ثم.. شرحت لها، بأسلوب أكاديمي جاد، العلاقة بين سرعة الانفلات وخفة الجاذبية الأرضية، وفضل الجاذبية في حفظ الأجرام السماوية وضمان تماسكها وانتظام دورتها. أشرت لها عن مواطن "نكش الدجاج" في كشكولي. فسّرت لها الحواشي الجانبية واختصارات الأسماء. لم ننتبه في جديتنا لعرينا شبه الكامل. شعرها المنسدل على جانب وجهها ورموشها الطويلة السمراء ومرونة الفيزياء منحوا المكان عبقًا كالذي يبعثه في نفسي جلال النحت الإيطالي. شعرت أنها طيبة جدًا وستكون ذات شأن عظيم حين تتخلص من تفاهة المرحلة؛ خاصة وأنها تدمن "الشاي بلبن". أجبت عن أسئلتها المتعلقة بقوانين الفيزياء الثلاثة، كانت معظم ردودي

مؤسسة على قراءاتي "وهَبَدَاتي" أكثر من الدراسة.. ظلت نظرة انبهارها عالقة في الغرفة بعد رحيلها. ثم عاودنا الكرة بدءًا من سرعة الصفر حتى عدد لا متناه من اللطمات...

لم أعرف ماذا قصَّت عليهم من أخبار، لكن نظرات زميلاتها اختلفت، مالت إلى القبول. أما حبيبة ياسر فقد دبَّ خلاف كبير بينها وبين هذه الفتاة.. دائمًا ما يخسر المراهنون عليَّ وتخيب ظنونهم.

*****

كانت علاقتي بياسر أطول العلاقات لكنها بلا طعم، كل شيء فاتر. نتلقى الأكاذيب وتدَّعي التصديق وكلانا يعرف أن الأمر كذبة.

انتقلت من زهوة الشباب إلى أبواب الكهولة وياسر معي في مركب الأوهام. أرض ضحلة بلا عمق مع كائن طافٍ لا يغوص. أكثر ما يميِّع النفس هو العيش مع الكاذبين. كلما أرادني وجدني وكلما أردته وجدته يكذب، وفي الحالتين يسلبني مالي وأنا أبتسم. لم أكن أريد أكثر من علاقة تمنحني الوعود؛ كنت أقتات الكذب. انتهت قصته بثورة قام بها الزملاء لإذلاله، انطفأ فجأة وانطفأت معه، لفظوه فلفظني. في النهاية اتضح أنه هو الذي لفظنا جميعًا؛ رتَّب خروجًا آمنًا ليستمتعَ بحياة جديدة هادئة يفرُّ بها من جميع ما التزم به مع عاشقيه.

*****

دقّ بابي في ليلة شتوية، نسيت أنني استدعيت صفوت منذ يومين. جاءني بوجه مختلف، أصبح زوج أمي أشد أناقة. سألني: "ألديك خمر؟" فهمت عينيه، "سيلي غا"، ليس ممكنًا أن تَخُوض نفس النهر مرتين، لا تنس أنها أمي.

طال صمته وهو يرشف الخمر بأداء حزين، تسرب القلق إلى قلبي، قال معللًا حزنه الدّعِيّ:

"أتوقع الموت".

"وأنا أيضًا، كل ما له أول له آخر، بوادره كثيرة، لكننا غفل".

ذوّب الثلج في الكأس قليلًا ثم قال:

"أشعر أنه وشيك".

"من تقصد؟".

"ألم تعن أمك؟".

"لم أعن سوى نفسي،"

للحظة شعرت أنه يريد أن يقول أتمنى، استأنفت:

"أتعرف شيئًا عن أبناء عمي عابد؟".

"يعيشون كما يعيش الناس، تزوجوا وأنجبوا، أحدهم صار له حفيدان".

"وزوجة عمي، عايدة؟".

"امرأة جبارة، أنشأت أجيالًا وأجيالًا".

"أريد أن أتأكد أنهم سيرثون ما أملك".

فكّر في الرد للمرة الأولى:

"هذا يحتاج إلى مراجعة ضرورية".

"أمي لم تعارضني قط".

"ليس أمك".

"من إذن؟".

" الخُط، لم يعد تقسيم الأراضي يتم بغير إذنه".

"أراضينا؟!".

" تماهت الحدود".

"إنه نجع النابلسي، لا تسمح للسانك أن يعتاد غير هذا".

"دعك من التسميات".

"أهذا ما صار إليه الأمر بعد أبيك؟".

"أبي الآن عنده".

"أيُعالج أمرًا ما؟".

"يعالج الموت".

"كيف حال أمي؟".

"هذا ما جئت من أجله؛ إنها تموت".

ماتت في الأسبوع التالي، صدق ما توقّعه، أو رتّبه.

ووجدتني لا أكترث.

أخبرني صفوت بعد يومين أن الخط وافق على مسألة الميراث مقابل طلب واحد، ليس أبكار بنات العمومة ولا كرامة رجالهم؛ يعرف كرامة المحتد ويحترم الأب القديم. يريد قطعة من الأرض لا تتعدى الفدانين فقط. ادّعيت التأفف قليلًا، ثم وافقت بلا ضغوط...

صفوت.. ما أصعب فهمك.. كتوم كمحيط.

19

ظهر بعد اختفاءٍ طويل ليمحو كل ما كان، بالسوط والصراخ.

كنت أشعر بعيون تتبعني. لم أعرْ الأمر كثير اهتمام؛ الناس تتبعني دائمًا. بعضهم يتتبعني لمجرد التأكد من توجهي الجنسي، والقليل جدًّا في ذلك الوقت كان يريدني. كان لا بد للبدايات أن تُرسل ظلًا قديمًا ليسترد حقه، رحلة البلد فتحت عليَّ أبوابًا كنت أظنها منسية.

أربعة رجال أو أكثر في غاية الحماس والغضب أحاطوني بإحكام، لم يسمحوا لي بكلمة، دفعوني دفعًا داخل سيارة ميكروباص، وضعوني على كنبة خلف السائق، كان أمامها كنبة أخرى. جلس أمامي اثنان ووسَّطني اثنان بينهما، كلٌّ يلكمُ من ناحيته، لكمات متتاليات لم أعرف لها سببًا، لا شيء سوى السَّب والركل وطعم البصاق وحقد الأصوات، وضعوا كيسًا أسود فوق رأسي فأغمصوا عيني دون أن يتوقفوا عن الضرب. مرت السيارة في طريق سلس سهل، بوابات فُتحت ثم أغلقت؛ عرفت أنني أتجه نحو قصر داخل "كمبوند".

أفقت من إغمائي لأجدني عاريًا منكفئًا على بطني، مقيدًا إلى أعمدة سرير. لم يكن بالحجرة غيري، تأهّبت لِما ظننت أنهم أتوا بي من أجله، هذا ساديٌ جديد، خاصة وقد وضعوا تحت بطني حشية قببت مؤخرتي. الصمت طال ولم يظهر أحد. صمت يبعث على الجنون. نظرت جانبًا فوجدتها حجرة واسعة أنيقة البياض أرضها "باركيه"، أُفرغت من كل شيء سوى السرير.

بدأ صوت ارتطام منتظم يأتي من بعيد، اقتربت دقات متتالية لشيء مرن يضرب الأرض على وتيرة واحدة، إنها كرة. الصوت يقترب شيئًا فشيئًا، هي بالفعل كرة، فُتح الباب بهدوء، اقترب مُنَطِطُ الكرة، رأيت حذاءً أنيقًا بجانب السرير الأيمن، يضرب صاحبه الكرة بالأرض ثم يتجه بها نحو الجانب الأيسر. تابعته بعيني محاولًا فك اللغز، عانيت لأدير وجهي مع خطواته في وضعية جسدي العسيرة، أطال الوقوف بالجهة الأخرى، متى ينطق؟ شعرت أنه يتفرس ملامحي جيدًا، جيدًا جدًّا.

أجاءوا بي كل هذا الطريق وعانيت كل هذه المعاناة من أجل رجل يريد أن يلعب بالكرة؟

ألقى الكرة في رأسي من الخلف. ضربة قوية، ضربها مرة أخرى، وأخرى، ثم تركها فتدحرجت في بطء على خشب "الباركيه"، ثم بدأ العذاب الحقيقي.

عاد إلى الخلف، حيث لا أراه، لم يسمح ليَ القيدُ أن ألتفت، لم يتخطَ تعذيبي، ضرب الأرض بسوط فدّوت فرقعة عالية، مرات ومرات، ثم بدأ الجلد. سياط متلاحقة أخذت تشق جلدي بقسوة، لم يكن يتوقف إلا حين يعلو صراخي، يخرج من دون أن أرى وجهه ثم يعاود كل شيء من البداية، كرة تنط ثم ترطمني ثم فرقعة ثم جلد بلا رحمة. ليلة قاسية، بدا أنها ستمتد إلى الأبد. خفت أن يكون مصيري في نهايتها كمصير زوجة أشرف الحداد.

محاولاتي لكي أستبين الأمر فكرة لم تكن مجدية في ظل القيد والألم. لم أستطع أن أرى حين أرفع رأسي سوى مقدمة السرير. الحاشية التي أرقد عليها سميكة خشنة، مغطاة بخيش لكي تزيد المعاناة. يبدو أنها أُعدّت للجلد بالسياط فقط، لم أشعر أن صراخي جديد عليهم؛ هذا السيد الذي يجلدني يعرف أن العذاب ليس سياطًا تُلهب الظهر فقط، بل الصمت المرعب بين جلدة وأخرى. يستغل الوقت والفراغ وحيرة المُعذَب أيضًا، لا أدري ماذا كان خلفي، قررت أن أستغل الوقت في محاولة فك القيد، لم أستطع فقررت أن أستريح.

عاد بعد قليل ومعه شخص آخر. ظننته سيبدأ الوطء. اقترب الآخر، وضع مرآة صغيرة أمامي لتسمح لي أن أرى الجلاد في الدورة التالية. فتح زجاجة ثم سكب سائلًا زيتيًا فوق ظهري؛ شعرت أنني أحترق، لا أظن أن الجحيم يمكن أن تنتج عذابًا أشد من هذا، تركوني أتحرق ألمًا وقتًا أطول، أهالوا فوق جسدي ترابًا غريب الرائحة؛ حدست من رائحته أنه تراب فرن كثيف. الوقت أيضًا كان عذابًا، تمنيت أن يعجلوا بالخطوة التالية لنقترب من النهاية، ما كنت أعبأ بشيء لو مِت حينها، خِلتني أتلقى عذاب جهنم، خالدًا فيها. كيف غاب هذا المكان عن صفوت؟ ألم يقل إن عيونه وبصاصيه يعرفون كل شاردة وواردة.

خرج الرجل الثاني وعاود الأول الاقتراب ببطء، لوّح بالسوط بجانبي حتى أراه، عرفت أن الاسترحام لن يشفع لي، قلت له "ارحمني". أشعلته الكلمة فضرب بالسوط أقسى. جلدني بنفس العزم فترة أطول، صوت يخرج من بين أسنانه مع كل جلدة، كان ممتلئًا بالغضب والحقد، لم يزد على الضرب شيئًا. لم يقترب. بدأت المسافة الزمنية بين الجلدات تزيد، لا ليرتاح، بل لتكثيف مساحة العذاب، لم يكن لدي الوقت الكافي لأنظر إليه في المرآة من شدة الألم، توقف الضرب حين علا صراخي، عاد للخلف، جلس على

كرسي في مجال المرآة، وضع ساقًا فوق أخرى وأشعل سيجارة، عرفت أنه يمنحني الإذن أن أراه، أن أعرفه.

لم يكن هذا الوجه غريبًا رغم اختلاف الملامح، منعني الألم من القدرة على استدعائه، غاظه جهلي فأعاد الكَرَّة كاملة، شعرت أن لحم ظهري يهترئ. جلس مرة أخرى، خفت أن يعيد الكَرَّةَ، لا شك أنني سأموت إن فعل. لا أريد أن أموت هكذا؛ لا يليق أن يموت المرء منكفئًا وعاريًا.

نطق أخيرًا:

"ألم تعرفني؟".

هذا صوت قديم لكنه نضج، دققت النظر في المرآة أكثر، لولا أناقة مظهره لعرفته منذ اللحظة الأولى. رفعت رأسي ونطقت بين الأنين والالم:

"أنت عامر؟".

انتفض كالملسوع ممسكًا رقبتي بقسوة.

"أنا عامر، أنا عامر، انا عامر".

ظل يردد اسمه وهو يضرب بجنون، اشتد ارتفاع السوط وهَوَيِّه، صراخي كاد يشق الجُدُرَ، غضبه كان يقابل صياحي كمبارزة بالسيف.

دخل الرجال وأحاطوه للتهدئة؛ كانوا مشفقين عليه لا عليَّ، كلهم توجهوا نحوه هو؛ أهملوني "ككيس زبالة". بدا أنهم يحبونه جدًّا، إحاطتهم

تعكس إجلالًا حقيقيًا لشخصه، لم يكونوا كالزمرة يتبعون قائدهم لمجرد أنه السيد، حالة القرف التي كانوا عليها تثبت أنهم يعرفون ما أجرمت في حقه، كانوا ليمزقوني قِطعًا لو طلب منهم. قال لهم بلهجة آمرة:

"ألقوه في الشارع".

خرجت كالصّرصور، توَقَّيت عيونهم، أقذرني عريي وتراب الفرن. اعتدت الاحتقار طوال عمري، لكنه هذه المرة كان أشد مرارة. أظنه استرد حقه أيضًا من مدرس الجغرافيا، منحه بالتأكيد الإجابة المناسبة على سؤاله، أظنه كهربه بوصلة سلك من السد العالي ثم وجد الوقت ليبحث عني...

لم أسعَ للانتقام. لم أخبر صفوت. لم أبحث عنه لسببين، الأول أنني أستحق منه كل هذه الكراهية، والثاني أنني أعشق الغضب والانتقام.

20

"صديقي العزيز، تحية طيبة وبعد،

هل يستطيعون كسر الروح فينا إن هم اخترقوا الجسد؟ أيمكن أن أسير إلى الهاوية كمصير محتوم؟ لم أجد غيرك أسأله في هذا الشأن. ولأن روحي مهتزة، أخاف أن أواجه الناس بما حدث. لم تعد لدي رغبة في مواجهة أي إنسان. الخارجون من المكان الذي خرجت منه يلتزمون الصمت في الحياة، تعرفهم من الصمت وغيمة الانكسار في عيونهم.. لكنني عزمت أن أكون مثلك، ليس مثليًا.. بل متحديًا. لا يمكن أن يضيع المرء بهذه البساطة.

تعرف أنني كنت أحلم بدراسة الطب، عدت لبلادي فلم أستطع إلا الالتحاق بكلية الصيدلة. مات أبي في المعتقل. لن أدخل في تفاصيل تلك القصة، لكنني زاملتها، شقيقة الزعيم ابن الزعيم، توارثونا كالمتاع. بالطبع تعلم أنها لا بد أن تكون الأولى دائمًا، وكنت الثاني، تحصّلت على درجاتي بالجهد والعرق. بوصفها الأولى، ألقت كلمة على الدفعة، كانت مليئة بالأخطاء العلمية. بجوارها، وقف رئيس القسم متصاغرًا كذبابة. لا عليك بالتفاصيل. ناقشتها بقصد علمي بحت، جادلتني فدحضت فكرتها. ابتسموا حينها فخورين بنبوغي. اقتُدت إلى السجن فور انتهاء اليوم.

لا أريد الإسهاب في ذكر العذاب. أجبروني أن أجلس القرفصاء لأُدْخل بنفسي مقدم زجاجة مياه غازية بإستي، أدخلته طوعًا وقسرًا؛ أعطني صاعقًا كهربائيًا وأنا أرغمك على لبس شجرة. إن ما تمر به داخل المعتقل عصيّ على الإخبار يا صاحبي. كل ادعاءات الكرامة هناك باطلة. طلبوا مني أن أريهم كيف يكون الكلب.. عندكم يسألون عن نومة العازب فيما أظن. أتظنني رفضت؟ إذن أنت لم تجرب الحياة هناك.. نبحت كالكلب وزحفت كالكلب، ليست هذه هي المعضلة، المعضلة أني كنت أحاول إتقان النباح والزحف جدًّا، تمنيت في لحظة أن أصير كلبًا بالفعل ليرضوا عني ويوقفوا العذاب. لكن الإتقان عندهم كان كالفشل، لا يوجب إلا الركل واللطم وكسر العظام والصعق.

كان مقدرًا لي أن أقضي بقية عمري في السجن، لكن زميلتي العزيزة وافقت على إخلاء سبيلي مقابل سلِّ خصيتي...

استطعت الوصول إلى ألمانيا بعد الإفراج عني بعام، أنا الآن هناك؛ سأدرس الصيدلة. أرسل هذا الخطاب من حجرتي التي لم أخرج منها لأسبوعين كاملين، أجبني بالله عليك، كيف أمكنك تحدي كل شيء؟

ملحوظة:

"احرق هذا الخطاب فور قراءته ولا تذكر اسمي كما لم أذكر اسمك، فهواء تلك البلاد مراقب".

لم أحرق الخطاب طبعًا، لأنني، للمرة الأولى، وجدت من يستشيرني. احتفظت به عشرين عامًا، لم أهتم أن أعرف ما حدث بعد ذلك لمالك، لكنني أجبته حينها على الفور:

"صديقي مالك،

لا شيء ينكسر، الروح كنجم البحر، كلما انقطعت ساق نبتت أخرى. لماذا وصفت مرحلة العذاب بهاوية؟ لم لا تقل مثلًا إنها قمم ليس كل فرد قادرًا على الفكاك منها؟ كن صيدليًا عظيمًا وأحرق كل المراكب خلفك، انسَ هذي الأرض بكل ما فيها ومن فيها. يقولون إنهم يحترمون الإنسان في البلد الذي أنت فيه الآن.. أقم روحك واثبت، كثيرون يرددون كلمة جلال الدين الرومي عن جدار الروح "أقم جدار روحك" يرددونها لإثبات أناقة أفكارهم، أما أنت فافعل ما طلب الرجل.

لن تكون مثليًا، ولو أصبحت فلا ضير. هاهاها.. لبس الأشجار لا يحتاج لصاعق، دلني على الشجرة وسأعطيك هدية. لست أعرف، لماذا أنت جادٌّ هكذا والحياة تافهة؟ أتذكر قصة كمار؟ هذا الذي حدثتك عنه كثيرًا،

أريد منك أن تحقق أحلامه، لقد كان كل ما حوله يحرمه حق الحياة لكنه ناضل. لم تكن الجياد التي احترقت وهو يدافع عنها مجرد جياد، كانت أيامه المهدرة، صباه الضائع، جزأه المبتور، حبه الذي كان بلا أمل، أهله وأرضه. كافح من أجل إعلان الجدارة، مت وأنت تحاول شيئًا، لا تسمح للرمح أن يقتلك، كن طبيبًا عظيمًا، أو صيدليًا، ذلك أفضل من أن تبكي كل يوم على ما فات، كم أنت خائب يا مالك. لماذا ضيّعت الفرصة حين عرضت عليك؟ كنت لأمنحك ذكرى رائعة. سأذهب إلى بلادك، فقد أعجبتني فكرة عنق الزجاجة هذه، إذا كنت هناك تعاني ضيق روحك وقلبك، فنحن هنا نعاني البراح".

21

تنتابني حالات ملل ورغبة في ختم قصتي، كشعورك الآن تمامًا. القتامة تملأ قلبي، الليلة على وجه الخصوص. حظيت برفاق كثر، لكنني لم أحظَ يوما بصديق حقيقي. لن أخفيك سرًا، شيء يموت بداخلنا نحن الاستثنائيين بمرور الوقت، نحن في النهاية بلا وزن، كائنات بالغة الخفة، جل مواجدنا وشموخنا تذوب بمجرد إشارة من عابر مليح.

بلغني أن أختي ماتت، بكيت يوم عرفت كما لم أبك على أمي. تمنيت للحظة أن أراها وأعتذر، سلبتها ميراثها ومنحتها خجلًا لازم عمرها كله. أحجم الأغبياء عن اتخاذها زوجة بسببي. ليتني مُنحت فرصة اعتذار واحدة. عندما أخبرني ذلك الشاب الصلد بموتها، انهرت فاحتملني.. لست أدري، أكان سقوطي لعدم قدرتي على الاحتمال أم كان ذريعة لاستدراجه للداخل؟ ذرفت الدمع بين يدي عنفوانه ودهشته.. كان أدائي حزينًا وكان أداؤه مليئًا بالحيرة.

*****

حاول أحدُهم أن يحتويني، كان عابرًا بلا مذاق، مليئًا بالأحلام والوهن. يعتقد أن الكلام والمزاح والأناقة وكل أدوات الإبهار مظاهر لا قيمة لها. لم يكن كمدرس اللغة ولا الثانوية ولم يكن مثل ياسر. إذا كانوا هم من نار وطين، فهو ماء فاتر. لا طعم ولا لون، فضلًا عن رواء هزيل. لم يكن يليق إلا بكونه علاقة عابرة، من قال إن الصدق هو ما يحتاج إليه الظمآن. العلاقات الخالية من البُهار تصيبني بالملل. لم يكن الإخلاص هو ما أريده، بل المجون والشطط، يريدها علاقة شبيهة بالسوية، يحدثني عن الانتماء والأمل. سمحت له بفترة واهنة، لم يستطع أن يمنحني فيها تفردي، بل منحني الشتات والغيوم وتماهي المشاعر. لا يكفي أن يكون المرء مخلصًا وحانيًا ليحقق ثنائية متكاملة. لم يكن يصلح إلا أن يكون صيدليًا يصرف الدواء مجانًا للمحتاجين، أو والدًا لزوجة أحدهم، بقالًا طيبًا يقبل أن يبيعك ما تريد بالأجل، أو خادم مسجد يدعي فهم الشرع ويمنح الفتاوى الإصلاحية غير المستندة على العلم قدر استنادها على الرغبة التوفيقية. كان الزمان مضطربًا والطريق غير معبد والسيارة مرهقة من كثرة مطبات الحياة، وفوق هذا لم يكن سائقًا جيدًا. لم يستطع الحب. أعيتني فكرة الاستمرار مع شخص لا يمتلك جذوة الجذب والقسوة اللازمة في اصطكاك الصخر لاستثارة اللهب. لم يكن يمتلك سحر الاحتواء، مجرد انتماء ساذج لدائرة

ناقصة التدوير، وأنا أعشق الغرور، التمكّن، أما أولئك الحملان الذين يريدون أن يبهروني بوداعتهم فأولئك لا يصلحون لي، طُرقُنا مختلفة. طلب مني الطلب الوحيد الذي أمقته، لم أسمح أن يُقَبلَني، هذا مقرفٌ، هذا هو الشذوذ؛ لم يخلق الله القبلة كي يتبادلها فرعان من أرومة واحدة، عشقنا قائم على مخالفة الوجوه، لا التقائها، أووف. لم يكن ممكنًا أن أمنحه دقيقة أخرى، ملأني بالاشمئزاز فلفظته في غيابات النسيان والمحاق.

*****

الأمسيات الفارغة، الوحدة والعدم؛ يتربص الناس بمن يطرق بابك ليصموه بالعار، تأكلك الأمراض أحيانًا في مجتمع لا يعتبرك مؤهلًا للتعاطف. قد تمر أيام وليالٍ أظل راقدًا على الفراش حبيس داري فلا يسأل عني أحد.

اجتاح العالم مرض الإيدز، ألصقوه بي. لم أصب به لكنهم جميعًا أصروا أنني مصدره وسببه، لا يمكنك أن تتصور العذاب الذي عانيته من عيونهم، تقذّرهم واجتنابهم حتى الكلام معي، السباب والركل، الطرد من كل الأماكن، بحثت عن مكان لا يعرفني أحد فيه، لكن يبدو أنني على شهرة ليس من السهل إطفاؤها. أحدهم وضع قفلًا على بابي بالخارج ليمنع اختلاطي بالبشر.. آه يا زمن الوهن.. أين زمرتي؟

انكسر صفوت قليلًا حين مات أبوه ثم أخوه محجوب، قالوا إن وجه عم فخري كان في عين "الكبنيه" تمامًا حين وجدوه. أراد صفوت أن يصبغ ميتته بصبغة مقدسة فزعم أنه كان يتوضأ لصلاة الفجر. لكن القرية كلها تعلم أن أحدًا لم يشاهد عم فخري في مسجد ولا صلاة، حتى صلوات الجنائز والأعياد لم يكن يحضرها. أما محجوب الذي راجت تجارته وأصبح وجهًا وجيهًا من وجوه القرية، فقد رفسته حمارة بكلتا قدميها، أصابت ضربتها قلبه وارتد ظهره في سيخ حديدي. ظل عالقًا فيه حتى الصباح حين ذهبوا لتنظيف الزريبة فاكتشفوا أنه "نفق".

*****

في فترة مماثلة لسقوط أمي القديم سقط داخلي كل شيء، سمِّها إن شئت فترة تافهة في غياب البطولات والأبطال، لفظت ذلك الصاحب الروتيني كما أخبرتك، قلت له اذهب إلى مدينتك الفاضلة ودعني.. عرفت بعدها أنه مات ميتة لا تليق بالمساكين، اغتيل رغم وداعته.

لم أعد أصحب غير الفراغ، توقفت عن القراءة وتجمدت أفكاري، صرت صيدًا رخيصًا في الطرقات وحمامات الشوارع والأماكن المهجورة، تعرّضت لأكبر المهانات. صار نجع النابلسي صداعًا تُكمَمُ أفواهُ من يذكره، لم يعد السؤال عن بطش الخط قائمًا، بل أصبح السؤال "لماذا لا يتعايش أهل

النجع مع الوضع القائم؟". كل بأس الزمرة كان موجهًا إلى أهل النجع، وخارج النجع كانوا نعامًا.

*****

يفتر الإحساس بالمتعة، يسلمك الفراغ إلى فراغ واليأس إلى يأس، كم تحتاج للرفقة. نظرت إلى اللوحة التي اقتنصتها من المدرسة طويلًا، الجياد ساكنة في أرض قفر، مقيدة بسلاسل وعيونها بلا أمل. صعدت إلى سطح منزلي يومًا أفكر في الانتحار، لست أدري بالضبط ما الذي دفعني لهذه الفكرة، لعلي كنت في اللحظة المقفرة التي مرت بها مدرسة التدبير قديمًا وهي تعقد مع الجنش صفقتها. لم يكن أحدٌ ليحزن عليَّ ولم تكن لي إلا صداقات عابرة. لم يبق منها شيءٌ.

حاولت التشبث بجرأة الإقدام على الموت. السطح عال والمسافة مرعبة.. أوشكت لحظة القفز الساحرة على الإشراق، لكنني رأيته...

كان يمرح كقط بلعبة بلهاء على سطح بيت مواز لبيتي، أسواره مهدمة لكنها لا تخفيه... لاح كالبهجة على غير انتظار، كان في حوالي السادسة، ابن بواب جديد جاء من الصعيد، أعرفه من تعهد السيارات بالغسيل، أحد أولئك الذين يطوفون حول القرش حيث يكون.

لم يكن ذلك الطفل أسمر جاف الملامح كأبيه، بل مشرقًا بهيًا كأمه الجميلة التي تمسح السلالم، تأملته كثيرًا. تعطلت فكرة الموت أمام الطفولة الجميلة الناشئة. تعهدته في مرات كثيرة تالية بكل أنواع الشوكولاتة التي أجزم أن أباه ما كان ليفكر بها، نفس البض الطري الذي كنته.

كان اسمه أنس، وكنت أحب أن أستمع إلى الكلمات وهي ما زالت تحبو على لسانه. مليح حلو الابتسامة يكاد يحتضنك لمجرد أنك تبتسم له، تقربت منه كثيرًا، يعشق المصارعة، صارعته وتكرر تقلبنا وتكورنا، ضحكته اشتهاء، لقاؤنا في الصباح حينما يكون الكل منشغل بشأنه، الأب حيث ينتظر الخارجين بسياراتهم، يمسحها ثم يحوم حول شباك السائق لينفحه ما تيسر، والأم تمسح سلالم البيوت وتتركه هو في السطح ليراقب الطيور والفراخ. أرسلته بأموال إلى الكشك المجاور مرات عديدة لشراء ما يشتهي. طلبت إليه أن يوافيني عند الكشك في نهاية الطريق، يطمئن أبوه أيضًا لإرساله هناك لشراء المعسل، يذهب ويجيء بلا متابعة..

في انتظاره ذلك اليوم، ارتبكت بلا حدود. تعرّقت وتوترت وأكلت قشرة شفتيّ. لم يكن ما انتابني هو الشعور بالخوف، بل القلق. لو لم يأت لأخذته عنوة، كنت سأجد طريقة أخرى، هذا بديل موتي وما كنت لأتركه. جاء من بعيد مهرولًا في خطى صغيرة، يخُب في مرح كمُهر، يالطلته البهية،

كلما اقترب خفت أن يراه أحدهم، وددت لو أني انصببت من السماء عليه فاختطفته كنسر وحلّقت به بعيدًا بعيدًا، حيث لا عين تستطيع رؤيتنا، هززت ركبتيّ ووجدتني أجز سطح فمي جزًا، أسناني في هذه اللحظة صارت ذئبية، أفكاري كانت ذئبية، أجمل ما في الذئب أنه لا يعرف النكوص. اقترب أكثر، هل أعود خطوتين بسيارتي أم أنتظر؟ عذاب هذه الأمتار الأخيرة لا يحتمل، أسرع أيها الغر الجميل، أسرع.

حاولت أن أبدو متماسكًا ليطمئن، جميلة كانت خطوته، وجميلًا كان وجهه، شعره الأصفر المتطاير. قفز في السيارة ككلب مدرب، استقبلته بلكمة مداعبة فقابلها بعشرات اللكمات، احتضنته ووضعته على حجري موهمًا إياه بقيادة السيارة، لم أكن أريده أن يشعر بطول الطريق إلى هذه الشقة البعيدة، كانت نشوته بلا حدود، ألهيته باللعب طوال الطريق، وعدته بمصارعة حتى الموت.

انفردت به في تلك الحجرة المجاورة، أتراها؟ جلسنا في البداية في نفس هذا المكان، تمنيت ألا يثير غيظي بالحنين الطفولي الساذج، ماذا يمكن أن يمنحك البيت هناك؟ أستجد هذه الشوكولاتة الفاخرة وهذا الفراش الوثير؟ أتريد أن ترى تلك الغرفة أم ليس بعد؟ دعني أكمل لك البوح

الذي يشعرني الآن بلذة الموسيقى، دعني أشعر بنغماتها الراقصة في لحن الصراحة، لا تندهش إن رأيتني أرقص.

لاعبته كما يحب، لم يشاركني اللعب بنفس بهجة السطح، دهمه الشعور بالغربة، أحسَّ بالقلق. لقد جلبت كل أسباب المتعة إلى هذا المكان فلماذا لا يشعرون بالمتعة فيه؟ أنت أيضًا، لماذا لا تشعر أن هذا المكان يجلب للبهجة؟ أخبرني عن سبب واحد لوجهك الصنم، سامحني، انظر، أرضية هذا الصرح من أغلى أنواع البورسلين، وتلك الستائر المائية التي تشابه أحواض السمك، حتى حوض الزينة هذا المليء بأسماك من كل لون وشكل لم يجذب انتباهه. بدأ الاضطراب لكني لم أمنحه الوقت ليستوعب المفاجأة، أبديت له وجهًا آخر مخيفًا كالليل الدامس، لماذا لا يجلب لهم وجودي السعادة؟ الخفاء والتكتم الشديد وصيتهم جميعًا، وهذا الآن يبكي. أغاظني جدًّا، أطفأت جميع الأنوار إلا ضوءًا واحدًا خافتًا، سمحت للظل أن يرعبه، آوى إلى حضني راجيًا أن أرحمه، ما هي الرحمة؟ ارحمني أنت بتلقّي تجربتي، فليعشها شخص غيري، معي، بعدي، فلتبق سائرة في الوجود إلى أن يفنى الجميع، إرث أسلمنيه مدرس اللغة ولا بد أن يحمله غيري، صرخت فيه مهددًا، ثم هدأ صوتي مهدئًا، ثم عدت للصراخ، "انظر إلى اللوحة الزيتية، لماذا لا تسكن مثل هذه الجياد؟ انظر إليها؛ فإنها تجعل الموت أسهل". ضممته في

حضني أكثر، أردت أن أعدل وضعيته، "عصلج" تمامًا، نفد صبري، بدأ صوت بكائه يعلو، كتمت فمه بيدي، قسوت عليه، ضربته بقسوة، امتلأ بالرعب فاستسلم، نشبت أظفاري في كتفيه، اخترقته. أعرف ما شعر به من ألم التجربة الأولى وأعرف الآن شعور مدرس اللغة، أنا الاثنان في آن معًا، أنا أنت وأنت أنا، فرغت منه. أردت أن أستنيم للحظة سكون، لقد صنعت تاريخًا وحددت مسارًا. لكنه ظل يصرخ، لم يسمح لي بالاستمتاع باللحظة التاريخية. بعد قليل ستسري دماء الذئب في دمك وبعد قليل أكثر، ربما سنوات، ستشعر بأعراض جديدة، أعراض التحول، وبعد كثير، ربما صرت أنت أنا، من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف. لكنه ظل يصرخ، ما زال خائفًا يرتجف، أخذت أهذي حوله بكلام لم أفهمه ولم أعد أذكره. رقصت كالمحموم له، هددته ليصمت، صحت فيه بأعلى صوتي، عرضت عليه الشوكولاتة، ألقيتها في وجهه، كرهت صراخه وكرهت وجوده في الغرفة، كنت أطوعَ منه في يد مدرس اللغة، زجرته بصوت صاخب وعين مهددة لكنه صرخ وركل بقدميه وطوح ذراعيه ثم تكلم، الكلام الذي لم يكن يمكن أن أقبله..

"سأقول لأبي، عيب.. عيب".

لم يكن أمامي سوى خنقه؛ أبوه جلف من أجلاف الصعيد، يعتنق الشعارات التي يحيا عليها كل العاديين والفانين والحمقى. أتهددني؟ شددته بيدي، أرغمته على السكون بكل قسوة، ناور اللئيم مناورته الأخيرة وأنا أقبض بكل أصابعي على عنقه الدقيق. نظرة كادت توقف كل شيء وتعطل المسار. عندما يئس من المقاومة وأدرك أنه ذاهب إلى فراغ لا يدريه، نظر إلي نظرة وادعة وتكلمت عيناه، "أنسيت أنني طفل". تعطّلت قليلًا متأملًا عينيه. غارت عيناي لأعلى وغبت عن وجودي في وجودي، ترفعت عن اللحظة الآنية وأخذت نفسًا كاد يمتد للأبد. أمّا عيناه، فقد عدت لأجدهما قد سكنتا تمامًا جاحظتين، قبل أن أخفف وطأة قبض أصابعي.

*****

22

إني متسخ يا أمي يملؤني الوحل، إني مرعوب فآويني..

لا تعرضي عني أتيتك خائفًا، أمي، أمي..

ذهب شبحُها ممتعضًا، لم يعبأ بي.

أفقت من غفوتي فوجدته جانبي ما زال، حملته إلى شنطة السيارة.

23

ها قد جاء الطعام، أتحب السمك؟ ما لك؟ لا شيء يستهويك! كلهم يعشقون الخمر والسمك، يقولون إنه لا يمر بالجهاز الهضمي، بل يُلهب التناسلي فورًا. هيا نأكل معًا، إن بقيت معي أيامًا سأطهو لك بيدي.

ماذا تريدني أن أفعل؟ هل تأففت مني؟ من المؤكد أن أباه ما كان ليتركني. هؤلاء الناس في منتهى التفاهة، يطلقون مسمى الشرف على أتفه الأشياء، صدقني، كل هذه العناوين الكبيرة تخفى تحتها مياه بطيخ، أما الحقيقة فهي طعمه البسيط غير المركّب، سيلانه من أطراف شفتيك وصوت قضمه. شعرت بحاجة شديدة إلى وجود عم فخري. عرفت سر الرجل، تكرهه وتشمئز من وجوده حد الغثيان، لكنه ضرورة لكل ذي منصب، ياللجنون! مات "بالكنيف"، يالها من ميتة لائقة! كان لا بد أن أتصرف بطريقة أشد إتقانًا، لا بد أن أخطو أول خطوة بسرعة، نسيان وجه أنس.

لففته في شوال وأخذته في سيارتي. كنت هادئًا جدًّا، فكرت أن أشتري له شوكولاتة وألعابًا. وجدت شابًا رائعًا في الطريق، وقفت غير بعيد، عرضت عليه توصيلة، أوحت له عيناي بسري، شتمني الكلب بأقبح

الشتائم. أكملت في الليل العتيق طريقي، حائرًا بأنس. دفنته في أرض بعيدة، عندما دسسته في التراب، شككت أنه كان حيًا.. كنت مضطرًا، لا بد لهذا الخطر أن يختفي، كان وجهه هادئًا مسالمًا وادعًا، أجمل لحظات الشمس تكون عند الغروب، ألقيته في الحفرة، تحاشيت النظر إلى وجهه، وجوه الأطفال يا أخي لا يغيرها الموت. إنهم يبقون أطفالًا أيضًا بين يدي الموت، لا يستطيع أن يطمس توردهم، جلودهم وشفاههم، لكنه صار أبيض بشكل ملفت، عزلت مشاعري بسرعة، تمامًا كما فعل أشرف الحداد، نفيتها إلى سيلان أو المجر. أكثر ما كرهته في الأمر أنني ما زلت لصًا، قد سرقت هذا الطفل من أهله، الأطفال بهجة آبائهم، ما كان هذا ليُرضي مدرسة التدبير المنزلي. أي بصقة كانت تمور في حلق زوجة عمي!

*****

بت ليلتي في منزلي الآخر، استيقظت باكرًا، لماذا لم أردّ السباب لذلك الشاب ليلة أمس؟ كان فتيًا وغاضبًا، كان عريض الذقن عريض المعصم مشعره، صوته كالسيف، وحذاؤه السيفتي منحه في عيني قوة الجبال.. لماذا لم أغرِه بالمال؟

استيقظت على أصوات في الشارع تخترق الجدران. أم أنس، تصرخ باسمه، لن يعود فاسكتي، صوتك لا يليق بوجهه الصبوح. صراخك بشع. لماذا لا تستكملين حياتك بلا ضجيج؟ لعله الآن غلامٌ من غلمان الجنة.

قضيت وقتًا مملًا في البحث معهم عن أنس، كنت أبكي بكل إخلاص رغم ذلك، ماذا تظنني؟ لست حجرًا، منحتهم سيارتي راضيًا للبحث بها عنه، وضع أحدهم ميكروفون كبيرًا وظل ينادي من سيارتي شارحًا للناس في تكرار رتيب مواصفات الطفل الضائع. لم أستسلم لشعوري بالصداع. امتلأت بالرغبة معهم في العثور عليه، فتحت له سقف سيارتي لتيسير النداء وضمان مستمعين أكثر، تمنيت أن يظهر أحدهم من أي زقاق ليقول إنه وجده، لعله عاد من الجن ليلهو في أحد الأزقة. أنت تعلم أن الرب رحيم.. كنت معهم، صدقني، قلبًا وقالبًا. بصقت على صداع رأسي من تكرار نفس الكلمات في الميكروفون.

استجوبتني النيابة ضمن من استجوبت.. اتجهت كل أصابع الشك إلى عصابات خطف الأطفال وبيع أعضائهم الذي كان منتشرًا في ذلك الوقت، وصار إهمال الأم هو المتهم الأول. الناس عادة تبحث عن مبرر تستنيم إليه لتهدأ لواعجها أمام المصائب الكبرى، وغالبًا يتجه اللوم إلى أضعف

العناصر. تم القبض على الأم والأب بتهمة الإهمال، خرجا بكفالة بسيطة، تحدثت إلى المحامي فطمأنني أنها مجرد إجراءات. دفعت الكفالة من جيبي.

افتح الطعام يا صديق. أما زلت بعد كل ما عرفت عني تتحرج في مد يديك؟ اخلع هذه القفازات. لم تعد بيننا حواجز فلا داعي للحرج. الموت عام فلا تبتئس. كل من عليها فان. من منا أوقع الآخر في شرَكه؟ لست أدري لماذا أضع نفسي على حافة الخطر بقص الحكايات كلها عليك. ألن تأكل. ألن تتكلم؟ لم تكن هكذا حين وصلنا، لماذا لا تسقط هذا القناع الصارم فوق وجهك ناتئ عظام الخد والجبهة، هروب عينيك يحيرني.

*****

24

رغم كل ما قصصت عليك ما زلت أشعر أنك بعيد، مختبئ في قوقعتك. لقد صرت أسأل نفسي سرًا "لماذا جاء؟"، أتخفي غرضًا غير ما أعرف؟ كيف أكسر جدرانك لأصل إليك؟ تسمح لي أن أقرأ لك شيئًا من مكتبتي؟ أتعرف أبا نواس؟ انتظر، اسمع، أظنه ألقى هذه القصيدة على فتى صموت مثلك:

قل لذي الطّرفِ الخَلوبِ وقل لِذي الوجهِ الغَضُوبِ
ولمن يُثَّني إليهِ الحُسنُ أعناقَ القلوبِ
يا قضيبَ البانِ يهتزّ على غصنٍ كثيبِ
قد رضينَا بسلامٍ، أو كلامٍ من قريبِ
فبروحِ القُدس عيسى، وبتعظيمِ الصّليبِ
قفْ إذا جِئْتَ إلينا، ثمّ سلّمْ يا حَبيبي...

هذا أيضًا لا يطربك. لا شيء يدنيك مني. إذن دعني أُكمل لك بوحي...

*****

دق الباب في ساعة متأخرة بالليل؛ أنا المتاح في كل وقت. إنه صفوت، كلما بت في شقة عثر عليَّ. أصبح خلوًا من كل وسامته، خطَّ شعره الشيب وأفسدته الأصباغ، بدا ضئيلًا في ملابس متسعة، خسيس الوجه والجسد؛ بنفس ملامح الثعبان التي كانت تلوح في وجه أبيه، ذلك النوع مرفوع الحواجب. أقتلت أمي أم أفنتها الأيام؟ لم يعد أمر قريتي يعنيني، ستؤول الأرض لأبناء عمي وستُدفن للأبد ذكرى عائلة فايق، انتصر التاريخ للعهر في نهاية المدى، حيّرتني زيارته، لا أظن أن بيننا الآن رابطًا. لم تكن كلماته مكتسية بمداهنته المعتادة، بل كانت أشبه بالأوامر.. عينه تباشر عيني وصوته جاف:

"الخُط يريدك".

"يريدني أنا؟ لم؟".

"لم أُكلف إلا بإرسال الرسالة".

صرت كالعاهرات اللاتي يكلّفه بجلبهن. أصبحت في الجهة الأخرى، صرت الفريسة وصار هو السيد، انقلاب تام في نهاية الأمر، صفوت يأمرني. تحَكَّم الخُط في أرضي وإرثي في المرة السابقة، واليوم يرسل لي رسالة فارغة مفادها الوحيد إن كلبك لم يعد في خدمتك، لو شئت لجعلته ينهشك. لو أمر أصغر قواد في الزمرة أن يقتلني لما تردد لحظة، كل ما كان سيعوزه

وصف ملامحي. الصحة اعتلت ولم أعد قادرًا على النضال والتحدي. في النهاية، أنا لا شيء في هذا المجتمع، لم يفارقني اللقب القديم. أما الخط، فهو بصقة ألقاها الزمن فأخذت تكبر وتكبر وتكتسب صلابتها من خور الأضداد حتى صارت جبلًا كبيرًا من بصاق، كل ما حوله خائر.

التقيته في أحد "الكافيهات" ليس هذا هو الخط الذي تصورته، إنه نسخة حداثية أنيقة، الكافيه الذي اختاره لم يكن اختيار رئيس عصابة.. هذا مكان، وهذه جلسة رئيس مؤسسة كبرى تمتلك العلم بجوار السلاح، وتمتلك الخطط المناسبة لإدارة الصراع، والأهم من ذلك دقة وصوله لأهدافه، يتحدث بهدوء، يخلع نظارته ويمسح عويناتها في صبر، يرشف قهوته بكياسة، بلغ نقطة الذروة في حديثنا بوثبة واحدة. وقف رجاله يحرسون المكان، رجاله أيضًا كانوا مختلفين، يرتدون ملابس عصرية، يعرفون صفوت جيدًا، وقف بينهم في ألفة، وقفة تسيل تآمرًا.. لم يعد كلبي؛ بل كلبهم، كلب البصاق.

كنت ضعيفًا وخائرًا لكنني اصطنعت القوة. عيناه كانت تفهمني، يحاول أن يبدو في صورة الصديق لكن عينيه تطلقان بريقًا خبيثًا. فاجأني أنه يعرف أمرَ أنسَ. وضعني في قبضته، أخذ يعتصرني ببطء. قبل أن أفيق من ارتباكي، أثنى على حنكتي في إنهاء أزمتي مع مدرس التاريخ، "لا تظن أنها

يدك وحدك .. شددنا عضدك من خلف الستار". أتبع تلميحه بضحكة بائخة، "سنهزمكم في الماتش القادم". قال إنه سيغفل عن كل شيء؛ ما دام القتل عنه بعيدًا فمرحبًا به "زد إذا شئت ولدينا وسائل حمايتك". لكن كشف جرائمي أربكني، هكذا يحكمون النجوع إذَن. هو الذي اقترح زواج صفوت بأمي، أزال اللبس القديم، أشفقت على أمي للمرة الأولى منذ وعيت، تبدّلت معالم اللعبة، صرنا منذ زمن قديم كقطع في يديه على رقعة شطرنج، أيقنت أن صفوت قتلها. حاولت إخفاء هواني، البسمة الملتذة على وجهه نحرتني، سألته بلهجة حاسمة عما يريد فأجابني وعلى فمه ابتسامة مقيتة:

"لا شيء، كن كما أنت وأكثر".

"ففيمَ دعوتني؟".

"ليس إلا لتبادل الأنخاب".

"أما زلتم تأكلون الأموات؟".

"تلك عادات اندثرت، كشرف الرجال.. ولم يعد هناك من يستحق، قل لي، أتشمئز من البصاق؟".

أذهلني السؤال، هل يقرأني؟ لم أجبه فاستأنف:

"هل ترى حولك أشد صلابة منه؟ لو شئت لأدبرناك ببصاق حلو المذاق".

رفضت عرضًا. لأول مرة.

"لا".

حركت كأسي في يدي، لا رشفة منادمة أخرى.. تركت.. قمت بطيئًا مهزومًا، أحاطتك العنكبوت من كل المفاصل، شلّت كل نبض فيك، تركت عينيك تتابع موتك نكاية ومذلة، حتى الغضب لا تقدر عليه، ليس "لا تقدر عليه"، بل لا تستطيع أن تفكر فيه، لم يبق إلا أن ترجوها أن تدسَّ السم وتطبق مخالبها، لكنها تستمتع قليلًا بانتصارها.

قبل الباب ابتسم صفوت، المجد للبصقة، حركتها داخل فمي، تمنيت أن تثقبه، لكتها، لم أجرؤ أن أوجهها نحوه، فابتلعتها ثانية.

25

تلكأ الزمان، لكن العمر مرّ. صرت ما تراه الآن، تناوبتني الأماكن، أقع في أي شباك وأصيد من كل الأماكن، ساعدتني سيارتي التي كانت فارهة وما ملكت جيوبي وحطام ممتلكاتي في كل مكان. لكل حدث تكاليف. بقيت لساعات في السينمات الرخيصة والمراحيض العامة. مشيت في الطرق التي لا تأوي سوى المشردين. الوجه الأصعب للمأساة كان يتمثل في المواجهة بعد الانتهاء، حين يكتشفون جميعًا وبغير استثناء، أن ما فعلوه مقزز، كثيرون جردوني من ساعتي ومالي ثم ركلوني بأقدامهم، كثيرون طردوني كأنهم فوجئوا بلص على سريرهم، لا أذكر أن أحدًا سمح لي بالمبيت عنده.

الذي يتسلل حثيثًا كأفعى ناعمة الزحف دون أن نشعر به، هو العمر. تثلم أظافر النسور، تصبح المناقير معقوفة شديدة الانحناء، يثقل الريش حتى يصير عبئًا، تنثرم أسنان الأسود وتخفت شراسة عينيها. الصيدُ يعز، تلجأ للحيل الرخيصة باهظة التكاليف من خزين الكرامة، تحفل المائدة

بالقوارض، تنبش الأرض بحثًا عن أي حطام، الفم الأدرد يعجز عن قضم تفاحة. يبسم الوجه لكل عابر. لكن معظمهم لا يردون التحية.

لا شيء أصعب من مفاتحة المستغلقين، البحث عن كعب أخيل وعن أنسب لحظة للكشف عن سر الشخصية الغامض. المفاجأة قد تؤتي رد فعل معاكس. لكن لحظة المكاشفة تظل رهانًا صعبًا في مجتمع لا يدري وجهه الحقيقي. المحطمون دائمًا صيد سهل. أتعرف قصة الأسد الذي أعجزه الكِبر وأعيته الحيل فلبث مهيضًا على باب جُحر يدّعي المرض لكل الحيوانات العابرة، من أحقر الطرائد أكلة الجيف حتى أشدها سموًا. كانت قصة يقصونها على الأطفال، لكنها كانت تؤلمني، كشفت حيلته أتفه الحيوانات. حتى سخاء المال لم يعد شرفًا، ليس في الطريق سوى عجزة أرادوا اختبار قدرتهم أو سفلة لا همَّ لهم سوى السرقة والابتذال، لم تعد الملاعب تحتوي مهرة وإنما أوباش السرائر ومن بلا موهبة ولا مأوى، ومن تخشى في وجوده أن تغمض عينيك لأنه قد يسلب روحك من أجل خاتم يلمع في يديك، وهؤلاء الذين يتحدثون ويتحدثون بلا نهاية، يثرثرون ويحومون رغم وضوح الهدف. صرت فأر تجارب، يرن هاتفي في استدعاء من معذّب راجع نفسه كثيرًا قبل أن يحدثني، لا يتخذ قرار العفة إلا بعد أن أصل.. أو استدعاء ملتاع في مجاهل الوحدة لا أمل فيه ولا رجاء. اقتعد من

لا يمنحه انتصابه كفاءة ولا يستطيع حمل مسئولية، أولِي ظهري لمن بلا قدرة فيحتك حتى يقذرني، وقد يستدعونني كثيرًا لصنع كمين يتلاعبون فيه بالشيخ الماجن الذي يتقبب وقد ملأ الشيب شعره.

أتعرف كيف تصيد الضباع؟ الطرق عديدة حسب مقتضى البأس والعمر والقوة، فالشجعان الذين يباغتون الأسود في فورة الصبا فيخطفون فريستهم، يأكلون الجيف في الهرم. وكلهم يقيئون الطعام ثم يأكلونه مرة أخرى. أما الطريقة الأشد خبثًا فهي أن يتسلل الضبع العجوز بين الغزلان كأنه صديق حطّت قواه السنون، يجلس خانعًا هادئًا مليئًا بالحكمة بينهم حتى يطمئنوا إليه تمامًا، يوشك أن يقول في ألم، "هأنذا بينكم، بائس أكلته الحياة"، ثم يقبض بأسنانه فجأة على بطن غزالة أو فخذها، سريعًا كلمح الطرف، غالبًا تكون أشدهم ائتمانًا له؛ لا تستطيع الفكاك مهما حاولت، يقبض بكل قوة.. كل محاولاتها للفرار مؤلمة لها.. يظل بها حتى يأتي الرفاق فيكملوا الفتك بها.. في عين أمثالك ممن لا ينظرون إلا إلى نوعهم، لا بد أنكم تشفقون على الغزالة، تلك الرقيقة ذات العيون الوادعة، لكن، بالله عليكم، بالشيطان، ماذا يفعل الضبع؟ ألا يأكل؟ أيقرض الشعر في عشق قوامها.

*****

تعبت جدًّا من استدعاء الذكريات الليلة. أشعر أن ذهني أفرغ كل شيء، انتظر، ها هو صاحبٌ يبدو كالريشة في قلب الذكريات، أذكر جيدًا أنه كان يريد أن يكون ريشة، يدخل في الصورة وجه آخر، بل كان صبيًا غريرًا.. ذهني متعب، تجميع لحظة كاملة أصبح مرهقًا، أقول لك، أنت لا تصبح أنت بعد الدّم، تتخطى المألوف، سئمت من سرد الحكايا فدعني أستريح. دعنا نتحدث عنك...

ترددت على ذلك المقهى كثيرًا حتى أصبح موقعي المفضل، يعرف الصياد الأماكن التي تحوي السمك بخبرة لا يستطيع وصفها. ما أيسر ان تشتري النادل فييّسر أشياء كثيرة؛ يُسَهل الاختيار والعرض والطلب بلا حرج، مشروبًا ترسله لأحدهم فيقبله أو يسدد إليك نظرة مفادها الرفض.

قررت حين أن وقعت عيناي عليك أن أشاغبك. هل سيرضى بهرِمٍ مثلي؟ تبدو خطة الضبع مثالية. فتوتك وشبابك وعروقك النافرة ووجهك الصلب، راقبتك أسبوعًا كاملًا؟ أردت للخطة أن تمشي على مهل، تحدثت لمن بجواري وعيناي تمران عليك في كل استدارة. التقت عيوننا ثلاث مرات، شعرت مرة أن عينيك تستحث التجربة، لكنني خفت أن أسيء الفهم. هذه العيون ترعبني منذ زمن قديم. نكصت على عقبي وأنا الماهر في صيد النظرات. عندما تحدثنا خلسة وضربت لي موعدًا خفيًا على بعد مئات

الأمتار من المقهى، في ذلك المكان الذي لا يمر منه أحد، لم يكن يعنيني أنك تريد أن تجعل الأمر سرًا؛ ألِفت هذا. ليس يعنيني سوى أن تبقى وأن تبدي احتمالًا قليلًا لثرثرتي هذه الليلة وأن تنهيها كما يجب. يالهذه العيون. يالهذا السر في عينيك، وهذه الجبهة المنبسطة وهذا الشموخ. يدهمني التاريخ، عيناك تذكرني بما ظننته نام في حضن النسيان، توقعت أنك في المرحلة الثانوية. أنت تاريخ مليء بالشجن، كأني مسوق إليك سوقًا وكأنك كنت تنتظرهذا التلاقي، أكنت تراقبني؟

أتريد أن ننتظر حتى تلعب برأسك الخمر ويلهبك الجمبري؟ ألا تريد أن تتحدث أنت قليلًا؟ حسنًا، كلمني عن نفسك، بزغ نور الصباح وانجلت ستائر الليل عما أخفى الظلام، بسطت الشمس نورها الكاشف منذ ساعتين. هلَّا كشفت لي أمر عينيك وصمتك؟ أكنت تبحث عن شيء في الحكاية؟ أوجدته؟ أم وجدتها فارغة كصاحبها؟ أتحدّث منذ انتصف الليل، تكلم الآن أنت، ما أحلامك؟ ماضيك، إلى أين تنوي الذهاب؟ أتذهب أنت بأقدارك أم تمشي الأيام بك؟ تكلم بالله عليك، ماذا تعمل؟ أين أهلك؟ ماذا يعمل أبوك؟

- كان مدرسًا للتاريخ.

- ...

- أودت به طلقة غادرة...

هل أكمل ثرثرتي؟ أم أسقط في كبوة الخزي أخيرًا؟ امتلأت بالفراغ، جفّ حلقي وهربت الكلمات، أصبح للصمت صوت دوي، سقطت في هوة عميقة خالية من الهواء والرغبة، ارتطمتُ خلالها بالكلمات التي لا تجرؤ شفاه على نطقها. آلاف الأسئلة وجدت إجابات تحل جميع الألغاز والأساطير.. تهبُ نحوي كالريح وأنت تبرح مكانك بقسوة. عيونك تتلظّى بنفس حماسة الفتك والحنق، أسكنُ لما هو قادم، يقرعني صوت تهشم زجاجة، يصاحبه ألم من تمزق داخلي، هَا أنت تقربني، ليس جثومك فوق صدري سبب العذاب، لكنها المفاجأة التي طردت كل بهجة في النفس، لو كنت أعلم أنني سألقاك، لسمحت للتاريخ أن يستكمل السير في مجراه وما قتلته.. لما اقترفت هذه الخطية، المتعة تستحيل إلى ألم ممض وعنق الزجاجة في يديك الشامختين يزداد اقترابًا وحدة، مقاومة الشيخ غير مجدية، ويداي ضارعتان أتوسل الرحمة، مشهد كنت أتوق للتفرغ له، كان أجدى بهذه اللحظة أن تكون لقاء، المقاومة عبث.. هاك عنقي فدسّ مديتك، هل يمنح اختراق نصل الزجاج نفس المتعة؟ نافورة الدماء، تشبثي بيديك، ما زال في القلب اشتهاء. أما زالت لدي فرصة؟ يداك صلبتان صلابة باهرة وعيناك غاضبتان. كل شيء بداخلي يخبو، ذبالة من شمعة تكاد تذوي في العدم،

أضيع في فراغ سحيق، تلاحق الطعنات مثير. يداهمني فجأة وجه أنس، صوت ضحكاته المجلجلة وهو يصارعني، رعشة خفيفة لا تكاد تُرى وأنا أردم الحفرة، نظرة مدرسة التدبير المنزلي، نظرتها غاضبة، تستحيل إلى نظرة مرعبة قبل أن تتوه ملامحها في غمرة اختناقي وألمي الذي يتزايد بشراسة مفرطة، أتشبثُ بوجه أمي في الخيال، لكنها تشيح بوجهها. يلوح كمار برمحه فيلقيه في قلبي، يبدو مشمئزًا مني رغم أنني أحببته.. يبتسم هولاكو لموت المستعصم وتفجر الدماء من الرقبة برمح كمار، تبصق زوجة عمي بصقة الوداع، تنظر عينا الخط، لعلّه أسفل البيت ينتظر، ابتسامته المقيتة، الجرح يتسع، تغيم الرؤى، يشتد الألم، تمتص العنكبوت الثعبان، تثبت عيناي على الجنش.. وشيئًا فشيئًا يسود الظلام...".

تمت